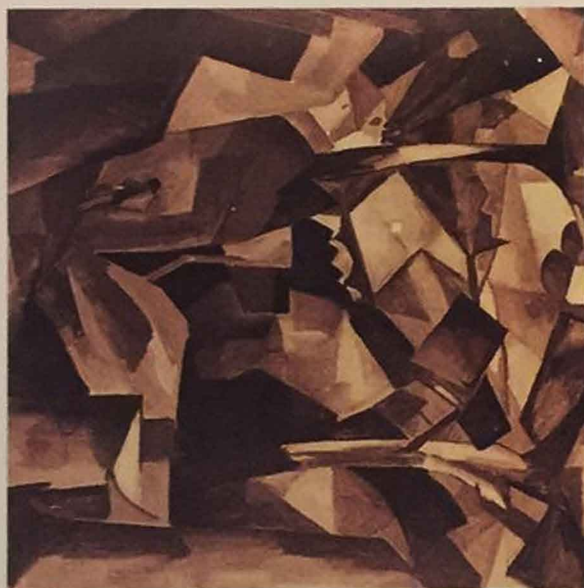
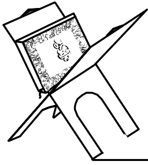
إبراهيم بن عمر السكران

الطريق إلى القرآن




دار الحضارة للنشر والتوزيع



مدخل

الحَمدُ للَّه، وبعد.

لطالما أبهرني حديث بعض الصالحين إذ يتحدثون عما يرونه من فرق مُبهِر في حياتهم، وعن فرقٍ عظيمٍ في فَهمِهم وصحة نظرهم واستقرار تفكيرهم؛ ببركة هذا القرآن.

ولطالما أبهرني حديث بعض الصالحين إذ يبثون شجاهم عما يجدونه في أنفسهم بعد تلاوة القرآن.

يتحدثون عن شيء يحسون به، كأنما يلمسونه بحواسهم، من قوة الإرادة في فعل الخيرات والتأبي على المعاصي.

وراحة النفس في صراعات الأفكار والمنافسات الاجتماعية.

بل لقد أبهرني فوق ذلك كله تشرُّف النبي ﷺ ذاته بالقرآن! سيد ولد آدم يتشرف بكتاب اللَّه..

فانظر كيف يرسم القرآن حال النبي ﷺ قبل القرآن، وحال النبي ﷺ بعد القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢].

وقول اللَّه سبحانه: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف:٣].

فانظر باللَّه عليك! كيف تأثرت حال النبي ﷺ بعد إنزال القرآن عليه؟!

بل انظر ما هو أعجب من ذلك؛ وهو حال النبي ﷺ بعد الرسالة إذا راجع ودارس القرآن مع جبريل كيف يكون «**أجودَ بالخير مِن الريح المُرسَلة**» كما في البخاري[1] !.

هذا؛ وهو رسول اللَّه الذي كَمُل يقينه وإيمانه، ومع ذلك يتأثر بالقرآن فيزداد نشاطه في الخير، فكيف بنفوسنا الضعيفة المحتاجة إلى دوام العلاقة مع هذا القرآن؟!.

بل انظر كيف جعل خاصية الرسول ﷺ تلاوة هذا القرآن فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ [البينة:٢].

وانظر إلى ذلك التصوير الشجي لحال أهل الإيمان في ليلهم كيف يسهرون مع القرآن:

﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: ١١٣].

أترى أن اللَّه -جل وعلا- يُنَوِّع ويُعدِّد التوجيهات لتعميق العلاقة مع القرآن عبثًا؟!.

فتارةً يحثنا صراحة على التدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤].

وتارةً يحثنا على الإنصات إليه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

---

(١) أخرجه: البخاري(٤٩٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وتارةً يأمرنا بالتفنن في الأداء الصوتي الذي يخلب الألباب لتقترب من معاني هذا القرآن: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤].

وتارةً يأمرنا بالتهيئة النفسية قبل قراءته بالاستعاذة من الشيطان لكي تصفو نفوسنا لاستقبال مضامينه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨].

وتارةً يغرس في نفوسنا استبشاع البعد عن القرآن ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

وتارات أخرى يُنَبِّهنا على فضله، وتيسيره للذكر- ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ - وعظيم المنة به.. الخ.

كل ذلك ليُرسخ علاقتنا بالقرآن.

فهل تُرى ذلك كله كان اتفاقًا ومصادفة لا تحمل وراءها الدلالات الخطيرة؟!

بل هل من المعقول أن يكون القرآن الذي أقسم اللَّه به، وتَمدَّح بالتكلم به، وجعله أعظم الكتب السماوية التي أنزلها سبحانه، وخص به أفضل البشرية محمدًا ﷺ، وجعل حفظ ألفاظه خاصية أهل العلم.

هل من المعقول أن تكون كل هذه الخصائص والشرف والعظمة للقرآن ويكون كتابًا اعتياديًّا في حياتنا؟!

لا بُد أن هذا الشرف للقرآن يعكس عظمةً في مضامين ومحتويات هذا القرآن ذاته، ولا بد أن يكون لهذا القرآن حضور في حياتنا يوازي هذه العظمة.

وفي هذه الرسالة القصيرة التي بين يديك حصيلة خَطَراتٍ وتباريح حول واقع القرآن في حياتنا، وآثاره المبهرة الحسية والمعنوية.

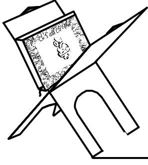
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

أبو عمر

١٤٣٣هـ

iosakran@gmail.com



١- سطوة القرآن

مِن أعجب أسرار القرآن وأكثرها لفتًا للانتباه تلك السطوة الغريبة التي تخضع لها النفوس عند سماعه.

«**سطوة القرآن**» ! ظاهرةٌ حَارَتْ فيها العقول.

حين يسري صوت القارئ في الغرفة يَغشى المكانَ سكينةٌ ملموسة تهبط على أرجاء ما حولك.

تشعر أن ثَمَّة توترًا يُغادِر المكان.

كأنّ الجمادات مِن حولكَ أطبقت على الصمت.

كأن الحركة توقفت.

هناك شيء ما، تشعر به لكنك لا تستطيع أن تُعَبِّر عنه.

حين تكون في غرفتك -مثلًا- ويصدح صوت القارئ من جهازك المحمول، أو حين تكون في سيارتك في لحظات انتظار ويتحول صوت الإذاعة إلى عرض آيات مسجلة من الحرم الشريف.. تشعر أن سكونًا غريبًا يتهادى رويدًا رويدًا فيما حولك.

كأنَّما كنتَ في مصنع يرتطم دَوِيُّ عجلاته ومحركاته ثم تَوَقَّفَ

كل شيء مرة واحدة.

كأنما توقف التيار الكهربائي عن هذا المصنع مرة واحدة فخَيَّم الصمت وخفتت الأنوار وساد الهدوءُ المكانَ.

هذه ظاهرة ملموسة يصنعها القرآن العظيم في النفوس، تحدث عنها الكثير من الناس بلغة مليئة بالحيرة والعجب.

يخاطبك أحيانًا شابٌّ مراهق يتذمر من والده أو أمه.

فتحاول أن تصوغ له عبارات تربوية جذابة لتقنعه بضرورة احترامهما مهما فَعَلا له.

وتلاحظ أن هذا المراهِق يزداد مناقشة ومجادلة لك.

فإذا استَعَضتَ[1] عن ذلك كله، وقلتَ له كلمة واحدة فقط: يا أخي الكريم، يقول تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء:٢٤].

رأيتَ موقف هذا الفتى يختلف كليًّا.

شاهدتُ هذا بأُمِّ عيني.

ومن شدة انفعالي بالموقف نسيتُ هذا الفتى ومشكلته.

وعدتُ أفكر في هذه السطوة المدهشة للقرآن.

كيف صَمَتَ هذا الشاب وأطرق لمجرد سماع قوله تعالى:

---

(١) استعَضتَ عن الشيء: أخذتَ بديلًا عنه.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾.

حتى نغمات صوته تغيرت !.

يا أللَّه! كيف هزته هذه الآية هزًّا ؟!.

حين قَدِمتُ للمجتمع الغربي -أول مرة- قبل ثلاث سنوات للدراسة؛ اعتنيتُ عناية بالغة بتتبع قصص وأخبار (حديثي العهد بالإسلام).. كنتُ أحاول أن أستكشف سؤالًا واحدًا فقط:

ما هو أكثر مؤثر يدفع الإنسان الغربي لاعتناق الإسلام؟ (حتى يمكن الاستفادة منه في دعوة البقية)..؟

كنتُ أتوقع أنني يُمكِن أن أصل إلى (نظرية مُعَقَّدة) حول الموضوع، أو تفاصيل دقيقة حول هذه القضية لا يعرفها كثير من الناس، وقرأت لأجل ذلك الكثير من التجارب الذاتية لشخصيات غربية أَسْلَمَت، وشاهدت الكثير من المقاطع المسجلة يروي فيها غربيون قصة إسلامهم، وكم كنت مأخوذًا بأكثر عامل تردد في قصصهم، ألا وهو أنهم (سمعوا القرآن وشعروا بشعور غريب استحوذ عليهم)! هذا (السيناريو) يتكرر تقريبًا في أكثر قصص الذين أسلموا، وهم لا يعرفون اللغة العربية أصلًا !

إنها سطوة القرآن.. واللَّه يقول: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١].

هذا تأثر الجمادات فكيف بالبشر؟!

ومن أعجب أخبار سطوة القرآن قصة شهيرة رواها البخاري في «صحيحه»[(١)]، وقد وقعت قبل الهجرة النبوية، وذلك حين اشتد أذى المشركين لما حصروا بني هاشم والمطَّلب في شِعب أبي طالب، فحينذاك أذِن النبي ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة، فخرج أبو بكر رضي الله عنه يريد الهجرة للحبشة فلقيه مالك بن الحارث (ابن الدَغِنَّة) وهو سيد قبيلة القارَة، وهي قبيلة لها حِلف مع قريش، وتعهد أن يجير أبا بكر ويحميه لكي يعبد ربه في مكة، يقول الراوي: «**فطَفِقَ أبو بكر يَعبدُ رَبَّه في داره، ولا يَستعلِنُ بالصلاة ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابْتَنَى مَسجِدًا بِفِناء داره وبَرَزَ فكان يُصَلِّي فيه ويقرأ القرآن، فَيَتَقَصَّفُ عليه نساء المشركين وأبناؤهم؛ يَعجَبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رَجلًا بَكَّاءً لا يَملِكُ دَمعَه حين يقرأ القرآن، فأفزعَ ذلك أشرافَ قريش من المشركين**».

هذه الكلمة «**فيتَقَصَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم**» من العبارات التي تطرق ذهني كثيرًا حين أسمع تاليًا للقرآن يأخذ الناس بتلابيبهم.

ومعنى «يتقصَّف» أي: يزدحمون ويكتظُّون حوله مأخوذين بجمال القرآن.

---

(١) أخرجه: البخاري (٢٢٩٧).

فانظر كيف كان أبو بكر لا يحتمل نفسه إذا قرأ القرآن فتغلبه دموعه.

وانظر لعوائل قريش كيف لم يستطع عتاة وصناديد الكفار الحيلولة بينهم وبين الهرب لسماع القرآن.

ومن أكثر الأمور إدهاشًا: أن اللَّه - جل وعلا - عرض هذه الظاهرة البشرية أمام القرآن على أنها دليل وحُجة، فاللَّه نبهنا إلى أن نلاحظ «**سطوة القرآن**» في النفوس باعتبارها من أعظم أدلة هذا القرآن، ومن ينابيع اليقين بهذا الكتاب العظيم، ولم يُشِر القرآن إلى مجرد تأثر يسير، بل يصل الأمر إلى الخرور إلى الأرض !.

هل هناك انفعال وتأثر وجداني أشد من السقوط إلى الأرض؟

تأمل معي هذا المشهد المُدهِش الذي يرويه ربنا -جل وعلا- عن سطوة القرآن في النفوس: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء:١٠٧].

باللَّه عليك؛ أعد قراءة هذه الآية وأنت تتخيل هذا المشهد الذي ترسم هذه الآية تفاصيله: قوم ممن أوتو حظًّا من العلم حين يُتلى عليهم شيء من آيات القرآن لا يملكون أنفسهم فيخرون إلى الأرض ساجدين للَّه تأثرًا وإخباتًا.

يا أللَّه، ما أعظم هذا القرآن!.

بل تأمل في أحوال قوم خير ممن سبق أن ذكرهم اللَّه في الآية السابقة.

استمع إلى انفعال وتأثر قوم آخرين بآيات الوحي، يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

هذه الآية تُصور جنس الأنبياء..

ليس رجلًا صالحًا فقط..

ولا قوم ممن أوتوا العلم..

ولا نبيًّا واحدًا أو نَبِيَّين..

بل تُصوِّر الآية (جنس الأنبياء)..

وليست الآية تُخبِر عن مجرد أدب عند سماع الوحي وتأثر يسير به..

بل الآية تصور الأنبياء كيف يخرون إلى الأرض يبكون..

الأنبياء.. جنس الأنبياء.. يخرون للأرض يبكون حين يسمعون الوحي..

ماذا صنع في نفوسهم هذا الوحي العجيب؟!

وقوم آخرون في عصر الرسالة ذكر اللَّه خبرهم في معرض المدح والتثمين الضمني في صورة أَخَّاذة مُبهِرة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [المائدة:٨٣].

أيُّ شخص يقرأ الآية السابقة يعلم أن هذا الذي فاض في عيونهم

من الدموع - حين سمعوا القرآن- أنه شيء فاق قدرتهم على الاحتمال.

هذا السر الذي في القرآن هو الذي استثار تلك الدمعات التي أراقوها من عيونهم حين سمعوا كلام اللَّه.

لماذا تساقطت دمعاتهم؟ إنها أسرار القرآن.

هذه الظاهرة البشرية التي تعتري بني الإنسان حين يسمعون القرآن ليست مجرد استنتاج علمي أو ملاحظات نفسانية.

بل هي شيء أخبرنا اللَّه أنه أودعه في هذا القرآن..

ليس تأثير القرآن في النفوس والقلوب فقط..

بل - أيضًا - تأثيره الخارجي على الجوارح..

الجوارح ذاتها تهتز وتضطرب حين سماع القرآن..

قشعريرة عجيبة تسري في أوصال الإنسان حين يسمع القرآن.

يقول تعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

لاحظ كيف يرسم القرآن مراحل التأثر، تقشعر الجلود، ثم تَلِين، إنها لحظة الصدمة بالآيات التي يعقبها الاستسلام الإيماني، بل والاستعداد المفتوح للانقياد لمضامين الآيات.

ولذلك مهما استعملتَ من (المحسِّنات الخطابية) في أساليب

مخاطبة الناس وإقناعهم فلا يمكن أن تصل لمستوى أن يقشعر الجلد في رهبة المواجهة الأولى بالآيات، ثم يلين الجلد والقلب لربه ومولاه، فيستسلم وينقاد بخضوع غير مشروط.

هذا شيء يراه المرء في تصرفات الناس أمامه.

جرِّب مثلًا أن تقول لشخص يستفتيك: هذه معاملة بَنكية ربوية محرمة بالإجماع.

وفي موقف آخر: قَدِّم بآيات القرآن في تحريم الربا، ثم اذكر الحكم الشرعي، وسترى فارق الاستجابة بين الموقفين؛ بسبب ما تصنعه الآيات القرآنية من ترويض النفوس والقلوب لخالقها ومولاها، تمامًا كما قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي مقابل ذلك كله.. حين ترى بعض أهل الأهواء يسمع آيات القرآن ولا يتأثر بها، ولا يخضع لمضامينها، ولا ينفعل وجدانه بها، بل ربما استمتع بالكتب الفكرية والحوارات الفكرية وتَلَذَّذَ بها وقضى فيها غالب عمره، وهو هاجِر لكتاب اللَّه.

يمر به الشهر والشهران والثلاثة وهو لم يجلس مع كتاب ربه يتأمله ويتدبره ويبحث عن مراد اللَّه من عباده إذا رأيتَ ذلك كله؛ فاحمد اللَّه يا أخي الكريم على العافية، وتذكر قول اللَّه سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وحين يُوَفِّقُكَ ربك فيكون لك حزب يومي من كتاب اللَّه- كما

كان لأصحاب رسول اللَّه ﷺ أحزاب يومية من القرآن- فحين تنهي تلاوة وِردك اليومي فاحذر يا أخي الكريم أن تشعر بأي إدلال على اللَّه أنك تقرأ القرآن.

بل بمجرد أن تنتهي فاحمل نفسك على مقام إيماني آخر؛ وهو استشعار منة اللَّه وفضله عليك أن أكرمك بهذه السُّوَيعة مع كتاب اللَّه، فلولا فضل اللَّه عليك لكانت تلك الدقائق ذهبت في الفضول كما ذهب غيرها، إذا التَفتَتِ النفس لذاتها بعد العمل الصالح نَقَصَ مسيرها إلى اللَّه، فإذا التفتتْ إلى اللَّه لتشكره على إعانته على العبادة ارتفعت في مدارج العبودية إلى ربها ومولاها.

وقد نبهَنا اللَّه على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

وقول اللَّه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

فتزكية النفوس فضل ورحمة من اللَّه يتفضل بها على عبده، فهو بعد العبادة يحتاج إلى عبادة أخرى وهي الشكر والحمد، وبصورة أدق فالمرء يحتاج لعبادة قبل العبادة، وعبادة بعد العبادة، فهو يحتاج لعبادة الاستعانة قبل العبادة، ويحتاج لعبادة الشكر بعد العبادة.

وكثير من الناس إذا عزم على العبادة يجعل غاية عزمه التخطيط والتصميم الجازم.

وينسى أن كل هذه وسائل ثانوية.

وإنما الوسيلة الحقيقية هي: الاستعانة.

ولذلك وبرغم أن الاستعانة في ذاتها عبادة إلَّا أن اللَّه أفردها بالذكر بعد العبادة فقال:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وهذه الاستعانة باللَّه عامة في كل شيء؛ في الشعائر، وفي المشروعات الإصلاحية، وفي مقاومة الانحرافات الشرعية، وفي الخطاب الدعوي، فمَن استعان باللَّه ولجأ إليه فتح اللَّه له أبواب توفيقه بألطف الأسباب التي لا يتصورها.

على أية حال، لا يمكن أن يُفَوِّت القارئ ملاحظة هذه الانفعالات التي يحدثها القرآن في النفوس، والتي هي سطوة القرآن فعلًا.

و«السطوة» أصل معناها -كما يقول ابن فارس- «أصل يدل على القهر والعُلُو»[1]، فالقرآن له قهر وعلو ملموس على النفوس.

وهذا المعنى نظير وصف اللَّه للقرآن بالإزهاق: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

ونظير وصف اللَّه للقرآن بالدَّمغ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة»، لابن فارس (٣/ ٧١)، وفيه: «السين والطاء والحرف المعتل أصلٌ يدل على القهر والعلو».

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ونظير وصف اللَّه للقرآن بتصديع الكائنات: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

ونظير تشبيه اللَّه للقرآن بالبرق:

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] كما نبَّه على هذا التشبيه ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[١].

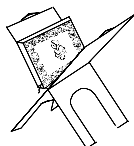
ولصحة هذا المعنى فإنك تجد في كتب الآثار أوصافًا للقرآن تدور حول أثره في النفوس، كعبارة «زواجر القرآن»[٢]، وعبارة «قوارع القرآن»[٣]، ونحوها مما هو متداول في كتب الآثار.

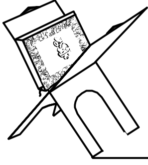
و«السطوة» - بمعنى العقوبة-: فِعلٌ لائق باللَّه، كما جاء في بعض الآثار عند ابن حبان وغيره: **«إنَّ اللَّه إذَا أَنزلَ سَطْوَتَهُ»**[٤]، ويكثر في كتب التفسير بالمأثور كالطبري وابن كثير ونحوهما قولهم: «يُحَذِّرهم اللَّه سَطوَته»[٥].

اللَّهم اجعلنا من أهل القرآن، اللَّهم أَحيِ قلوبنا بكتابك، اللَّهم

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٤٩)، و«زاد المسير»، لابن الجوزي (١/ ٢٩).
(٢) انظر مثاله في «تفسير البغوي»(٧/ ٣٣)، و«تفسير القرطبي»(١٥/ ٦٢).
(٣) انظر مثاله في: «تفسير الخازن» (٣/ ٢٧٧).
(٤) «صحيح ابن حبان»(٧٣١٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.
(٥) انظر مثاله: «تفسير الطبري» (١/ ٣٦٠)، (٢/ ٦٣)، (١٥/ ٤٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٢)، «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٧٥)، «النكت والعيون»، للماوردي (٢/ ٨٨).

اجعلنا ممن إذا استمع للقرآن اقشعر جلده ثم لان جلده وقلبه لكلامك، اللَّهم اجعلنا ممن إذا سمع ما أنزل إلى رسولك تفيض عيونه بالدمع، اللَّهم اجعلنا ممن إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سُجدًا وبُكيًّا، اللَّهم إنا نعوذ بك ونلتجئ إليك ونعتصم بجنابك أن لا تجعلنا من القاسية قلوبهم من ذكر اللَّه.





٢- تأمل.. كيف انبهروا !

تأمَّل كيف تنفعل (الجمادات الصماء) بسكينة القرآن ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] .

الجبال الرواسي التي يُضرَب المثل في صلابتها تتصدع وتتشقق من هيبة كلام اللَّه .

وتأمل، كيف انبهر (نِسَاء المُشركين وأطفالهم) بسَكِينة القرآن، ففي صحيح البخاري: أن أبا بكر ابتنى «**مَسجِدًا بفِنَاء دَارِه وبَرَزَ فكان يُصَلِّي فيه ويقرأ القرآن، فَيَتَقَصَّفُ عليه نِسَاء المُشرِكينَ وأبناؤهم؛ يَعجَبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رَجلًا بَكَّاءً لا يَملِكُ دَمعَه حِينَ يَقرأ القُرآن، فَأفزَعَ ذلك أشراف قريش من المشركين**»[١] .

و«التَّقَصُّف» هو: الازدحام والاكتظاظ .

وتأمل، كيف انبهر (صَنَادِيد المُشرِكين) بسكينة القرآن، ففي البخاري أن جُبَيْر بن مُطعِم أتى النبي ﷺ يريد أن يفاوضه في أسارى بدر، فلما وصل إلى النبي ﷺ وإذا بالمسلمين في صلاة

(١) تقدّم، البخاري(٢٢٩٧).

المغرب، وكان النبي إمامهم، فسمع جُبَيْر قراءة النبي ﷺ، ووصف كيف خلبت أحاسيسَه سكينةُ القرآن، كما يقول جبير بن مطعم رضي الله عنه: «**سمِعتُ النَّبيَّ ﷺ يقرأ في المَغرِب بالطور، فلَمَّا بَلَغَ هذه الآية** ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ **كَادَ قَلبِي أنْ يَطِيرَ**»[1].

للَّه دَرُّ العَرَب، ما أبلغ عباراتهم!.

هكذا يُصَوِّر جُبَير أحاسيسه حين سمع قوارع سورة الطور، حيث يقول: «**كَادَ قَلبي أن يَطيِر**»، هذا وهو مُشرِك[2]، وفي لحظة عداوة تستعر إثر إعياء القتال، وقد جاء يريد تسليمه أسرى الحرب، ففي خِضَمِّ هذه الحالة يبعد أن يتأثر المرء بكلام خصمه، لكن سكينة القرآن هزَّته حتى كاد قلبه أن يطير!.

وتأمل، كيف انبهرت تلك المخلوقات الخَفِيَّة «الجِن» بسكينة القرآن، ذلك أنه لما كان النبي ﷺ في موضع يقال له: «بطن نخلة» وكان يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فهيَّأ اللَّه له مجموعة من الجن يسمون «جِنَّ أهل نَصِيبِين»[3]، فاقتربوا من رسول اللَّه وأصحابه، فلما سمعوا قراءة النبي في الصلاة انبهروا بسكينة القرآن،

---

(١) أخرجه: البخاري (٤٨٥٤).

(٢) وكان وقتها مُشرِكًا لم يُسلِم بعد.

(٣) «نصيبين» اسم المكان الذي انتسب إليه الجن. وقال ابن حجر: إن «نصيبين» بلدة مشهورة بالجزيرة. انظر: «فتح الباري»(٧/ ١٧٢).

وأصبحوا يوصي بعضهم بعضًا بالإنصات، كما يقول تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وأخبر اللَّه في موضع آخر عما استحوذ على هؤلاء الجن من التعجب فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن: ١].

وتأمل، كيف انبهر (صالحوا البشر) بسكينة القرآن، فلم تقتصر آثار الهيبة القرآنية على قلوبهم فقط، بل امتدت إلى الجلود فصارت تتقبَّض من آثار القرآن، كما قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

وتأمل كيف انبهر (صالحوا أهل الكتاب) بسكينة القرآن، فكانوا إذا سمعوا تاليًا للقرآن ابتدرتهم دموعهم يراها الناظر تتلامع في محاجرهم كما صورها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

وتأمَّل، كيف انبهرت (الملائكة الكرام) بسكينة القرآن، فصارت تتهادى من السماء مُقترِبةً إلى الأرض حين سمعت أحد قُرَّاء الصحابة يتغنى بالقرآن في جوف الليل، كما في «صحيح

البخاري» عن أُسَيْد بن حُضَير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح، فخرجتُ حتى لا أراها، قال رسول اللَّه: «**وتَدرِي مَا ذَاكَ؟**» قال: لا، قال رسول اللَّه: «**تِلكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوتِكَ، ولَو قَرأتَ لأَصبَحَتْ يَنظُرُ النَّاسُ إليها لا تَتَوارَى مِنهُم**»[١].

وتأمل كيف انبهر (الأنبياء) عليهم أزكى الصلاة والسلام بسكينة الوحي، كما يُصَوِّر القرآن تأثرهم بكلام اللَّه، وخرورهم إلى الأرض وبكاءهم، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ۝٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

وأخيرًا.. تأمل كيف انبهر أشرف الخلق على الإطلاق، وسيد ولد آدم محمد ﷺ بسكينة القرآن، ففي البخاري عن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**اقرأ عليَّ**».

فقلتُ: أقرأُ عليكَ - يا رسول اللَّه - وعليكَ أُنزِلَ؟

فقال رسول اللَّه: «**إنِّي أشْتَهِي أنْ أسْمَعَهُ مِن غَيرِي**».

فقرأتُ النساء حتى إذا بلغت ﴿**فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١**﴾، قال لي رسول اللَّه: «**كُفَّ**»، أو«**أَمْسِك**»، فرأيتُ عينيه تَذرِفَان[٢].

---

(١) أخرجه: البخاري (٥٠١٨).

(٢) أخرجه: البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٠).

يا لأسرار القرآن.

ويا لعجائب هذه الهيبة القرآنية التي تتطامن[١] على النفوس فتخبت لكلام اللَّه، وتتسلل الدمعات والمرء يداريها ويتنحنح، ويشعر المسلم فعلًا أن نفسه ترفرف مِن بَعد ما كانت تتثاقل إلى الأرض.

هكذا إذن.. الجمادات الرواسي تتصدع، ونساء المشركين وأطفالهم يتهافتون سرًّا لسماع القرآن، وصنديد جاء يفاوض في حالة حرب ومع ذلك «كاد قلبه يطير» مع سورة الطور.

والجِن استنصت بعضهم بعضًا وتعجبوا وولوا إلى قومهم منذرين، والمؤمنون الذين يخشون ربهم ظهر الاقشعرار في جلودهم.

والقساوسة الصادقون فاضت عيونهم بالدمع، والملائكة الكرام دنت من السماء تتلألأ، تقترب من قارئ في حرَّات الحجاز يتغنى في جوف الليل بالبقرة، والأنبياءُ من لدن آدم إذا سمعوا كلام اللَّه خروا إلى الأرض ساجدين باكين، ورسول اللَّه ﷺ حين سمع الآية تُصور عرصات القيامة ولحظة الشهادة على الناس استوقف صاحبه ابن مسعود من شدة ما غلبه من البكاء.

رباه... ما أعظم كلامك... وما أحسن كتابك.

---

(١) «تتطامن»: تهبط.

كتابٌ هذا منزلته، وهذا أثره؛ هل يليق بنا يا أخي الكريم أن نهمله؟! وهل يليق بنا أن نتصفح يوميًّا عشرات التعليقات والأخبار و(الإيميلات) والمقالات، ومع ذلك ليس لكتاب اللَّه نصيبٌ من يومنا؟

فهل كُتب الناس أعظم من كتاب اللَّه؟

وهل كلام المخلوقين أعظم من كلام الخالق؟!

وهل روايات السَّاردين[1] أعظم من قصص القرآن؟!!

لقد اشتكى رسول اللَّه ﷺ من كفار قومه حين وقعوا في صفةٍ بشعة، فواحسرتاه إن شابهنا هؤلاء الكفار في هذه الصفة التي تَذَمَّرَ منها رسول اللَّه، وجأر بالشكوى إلى اللَّه منها، يقول رسول اللَّه ﷺ في شكواه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠].

أيُّ خسارة... وأيُّ حرمان. أن يتجارى الكسل والخمول بالمرء حتى يتدهور في منحدَرات (هجر القرآن).. إذا كان رسول اللَّه ﷺ - وهو حبيبنا الذي نفديه بأنفسنا وأهلينا وما نملك - يشتكي إلى ربه الكفار بسبب (هجر القرآن).

فهل نرضى لأنفسنا أن نخالف مراد حبيبنا رسول اللَّه ﷺ؟

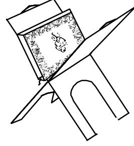
(١) «السَّاردين»، جمع سارد، والمعنى: القصاصون، ومَن يطلق عليه بالمصطلح المعاصر: (الرِّوائي).

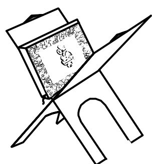
هل نرضى لأنفسنا أن ننزل في المربع الذي يؤذي رسول اللَّه ﷺ؟ فأين توقير نبينا ﷺ:

أخي الذي أحب له ما أحب لنفسي.

القضية لن تكلفنا الكثير، إنما هي دقائق معدودة من يومنا نجعلها حقًّا حصريًّا لكتاب اللَّه.

نتقلب بين مواعظه وأحكامه وأخباره، فنتزكى بما يسيل في آياته العظيمة من نبض إيماني، ومعدن أخلاقي، والتزامات حقوقية، ورسالة عالمية إلى الناس كافة.





٣- منازل الأشعريين

حادِثةٌ حكاها لي مرةً أحد الأقارب قبل زهاء خمس عشرة سنة.

كان يتحدث لي بشكل عرضي لم يلقِ هو بالًا وهو يتحدث.

لكن قصته تلك لازالت تتناوب على ذهني بين فينة وأخرى.

قريبي هذا يسكن قرية حدودية في عالية نَجْد، ويروي لي أنه في الأيام العليلة من السَّنة يُغلق أجهزة التكييف وينام قريبًا من النافذة.

ويعلم عن دخول الثلث الأخير من الليل عبر صوت أحد الكهول في القرية، يدخل المسجد مع الهزيع الأخير من الليل(١)، وفي فِناء المسجد يفترش طرفًا من السجادة الطويلة ويبدأ يُرَتل القرآن في صلاته بطريقة كبار السن المعهودة.

وهذه عادته كل ليلة.

منذ حكى لي قريبي تلك القصة وأنا أتحيَّنُ ذلك الكهل لأرى صلاته الروحانية.

يا ليتك تراه وهو يقبض لحيته بين حين وآخر.. ثم يسترسل في

---

(١) «الهَزِيع الأخير من الليل»: الجزء الأخير منه.

قراءته.

لقد كاد يأخذ بأنحاء قلبي..

قراءته تلك ليست بتجويد مصقول..

ولا حتى بصوت أنيق..

ولكنها - وعزةِ جلال اللَّه - فيها صدق ويقين أحس أن حوله هالة نور وهو يقرأ ويرتل.

صحيح أن القرآن بعامة يحمل طاقة تأثيرية تخلب لُبَّ المستمع.

ولكنْ هناك عنصر إضافي صرت ألمسه أخيرًا..

وهو أن القرآن إذا خيم سكون الليل يكون عالَمًا آخر..

ثمة قدر إضافي في جلال القرآن لحظة سكون الليل..

ذلك الكهل القرآني.. توفي قبل سنيات قلائل رحمه اللَّه رحمة واسعة.. ولكن ما الذي بعث قصته من مرقدها في ذهني؟

الحقيقة أن الذي أيقظ هذه القصة القديمة قصة مُمَاثِلة مرَّت بي وأنا أتصفح صحيح البخاري.. وأنا واثق أنك منذ أن تقرأ هذه القصة في البخاري فلن تخطئ عينك وجه العلاقة.

فقد روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنِّي لأعرِفُ أصواتَ رُفقَةِ الأشعَرِيِّين بالقرآن حِينَ يدخلون بالليل، وأعرف مَنَازِلهم مِن أصواتِهم بالقُرآن بالليل، وإنْ كُنتُ لَم أرَ منازِلَهُم حِينَ نَزَلوا**

بالنَّهار»[1].

لاحظ كيف لم يرَ النبيُّ منازلهم بالنهار !. . ثم استطاع أن يحدد موقعها لما خَيَّم الليل بسبب ما بدأ يتسرب منها من حنين المرتلين. . إنها «منازل الأشعريين».

يا أللَّه. . باللَّه عليك ألَا تلمس في كلمات رسول اللَّه ﷺ حرارة الإعجاب لذلك الترتيل الذي يتهادى من منازلهم بالليل؟!

واضح أن النبي ﷺ لم يكن يُخبِر عن مجرد سماعه مصادفة لتلاوتهم الليلية. . بل تكاد تتحسس كيف كان ﷺ متأثرًا بروعة ذلك الصوت القرآني لدرجة تتبع مصدره وتعيين موقعه في الليل، ثم الإخبار بذلك نهارًا.

هكذا يكشف مشاعره ﷺ: «**وأعرف منازل الأشعريين من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار**».

هل تُصَدِّق أنني شعرتُ بحُب جارفٍ لأولئك الأشعريين الذين كانت أصواتهم بالقرآن بالليل تستثير إعجاب رسول اللَّه ﷺ.

بل لقد دفعني ذلك الحب أن أبحث عن شيء من أخبارهم في كتب التراجم والسير.

صحيح أنني وجدت لهم بعض الفضائل، لكنها لم تشفِ نفسي

---

(١) أخرجه: البخاري (٤٢٣٢) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

إلى الآن عن خبرهم، وخبر ليلهم الذي كانوا يسهرونه مع كتاب اللَّه.

فاللَّهم ارضَ عن الأشعريين.

النبي ﷺ كان يسمع القرآن بالنهار قَطعًا، فلماذا جذبته قراءة الأشعريين وصار يتلفت إلى منازلهم إذن؟

لا أدري!.

لكنني أميل إلى أنها أسرار القرآن بالليل.

فآيات القرآن إذا هبطت غيوم المساء صارت تتدفق بروحانية خاصة.

انبعاث صوت القارئ بالقرآن بين أمواج الليل الساكن قصة تنحني لها النفوس.

وقد مَرَّت بي شواهد أخرى لاحظتُ فيها هذا الحنين النبوي لصوت القرآن بالليل.. ففي صحيح الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال مرة لأبي موسى رضي الله عنه: **«لَو رَأيتَني وأنا أستمِعُ لِقَراءَتِكَ البَارِحَة!»**[1].

يبدو أن رسول اللَّه ﷺ يشتد اهتمامه لمصدر الصوت حين يسمع قارئًا يقرأ القرآن وسط ظلام الليل.. حتى إنه إذا أصبح أخبر أصحابه بتلك القراءات القرآنية الليلية.

---

(١) أخرجه: مسلم(٧٩٣).

وقوله: «**لو رأيتني وأنا أستمع**»! يدل على أن النبي ﷺ أعَارَ الأمر اهتمامه.

وأخذ ينصت..

تَذكَّرْ معي هاهنا أن رسول اللَّه ﷺ يحفظ القرآن بإحفاظ اللَّه له.. ومع ذلك يُنصِت لمصدر الصوت بالقرآن مهتمًّا.. ثم يُخبِر أصحابَه بعد ذلك.

لماذا؟

إنها أسرار روحانية القرآن حين تستحوذ على سكون الليل البهيم.

ليس البشر فقط..

بل حتى الملائكة خرجت عن استتارها يومًا حين انبعث صوت الصحابي بالقرآن.

ففي صحيح البخاري عن أُسَيد بن حُضَير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، فرَفَعْتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظُّلة فيها أمثال المصابيح، فخرجتُ حتى لا أراها، قال رسول اللَّه: «**وتدري ما ذاك؟**» قال: لا. قال رسول اللَّه: «**تِلكَ الملائكة دَنَتْ لِصوتِك، ولو قرأتَ لأصْبَحَتْ يَنظُر النَّاسُ إليها لا تَتَوارَى مِنهُم**»[1].

---

(١) تقدَّم، «البخاري» (٥٠١٨).

كُلَّما سمعتُ قارئًا يتلوا شيئًا من سورة البقرة. . ومَرَّت بي بعض المواضع المثيرة للعقل البشري. . وفي «البقرة» مواضع تهز النفوس هزًّا، أعظمها آية الكرسي التي كلها في أوصاف الجلال الإلهية، وقصة تقلب وجه الرسول في السماء؛ تهفو نفسه لتغيير القِبلة، وقصة ابتلاء إبراهيم الخليل بالكلمات وإمامته في الدين، وقصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا القتال ثم أخذوا يتساقطون على مراحل، ومواضع عجيبة أخرى.

والمُرَاد أنني كلما سمِعتُ قارئًا يتلوا شيئًا من البقرة تذكرتُ تَنَزُّل الملائكة بأنوارهم حين أخذ أسيد بن الحضير يرتل البقرة وسط جنح الظلام.

لماذا تَنَزَّلت الملائكة كأنها المصابيح تتلألأ وخرجت عن استتارها؟

إنها عجائب كتاب اللَّه حين يُهَيمِن فوق سكون الليل.

بل تأمل في خبر أعجب من ذلك كله، وهو أن النبي ﷺ كان يحث أصحابه بشتى الطرق -المباشرة وغير المباشرة- على تلاوة القرآن بالليل.

كان رسول اللَّه ﷺ يبعث رسائل ضمنية أثناء تحدثه مع أصحابه تغرِس فيهم مركزية تلاوة القرآن إذا لفَّ المساءُ المدينة.

ومِن تلك القَصص أنه ذُكِر مرة في مجلس النبي ﷺ الصحابي الجليل «شريح الحضرمي» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأثنى النبي ﷺ عليه بطريقة ليس

من الصعب بتاتًا فَهْم الرسالة الضمنية فيها.

فقد روى النسائي وغيره بسند صحيح أن شُرِيحًا الحضرمي ذُكِر عند رسول اللَّه ﷺ فقال رسول اللَّه «**ذَاكَ رَجُلٌ لَا يَتَوسَّدُ القُرآن**»[١].

دعني أعترف لك أولًا أنني حين قرأتُ هذا الحديث أول مَرة لم يَستَبِن لي وجهه؟

ما معنى «لا يَتَوسَّد القرآن»؟!

وهل هناك أحد أصلًا يجعل القرآن وِسَادَة- لا سمح اللَّه-؟!

وإذا بالمعنى أنه لا ينام بالليل ويترك حزبه من القرآن، لكن البلاغة النبوية العظيمة صَوَّرت مَن ينام عن القرآن كأنه اتخذ القرآن وسادة!

والنص له وجهان؛ إما أن يكون الرسول ﷺ يمدح مَن لا يَتوسَّد القرآن، أو يذم مَن يتوسد القرآن، ورجح ابن الجوزي في «غريبه»[٢] والسِّندي في «حاشيته»[٣] الوجه الأول، وعلى كِلا التقديرين فالحاصل هو تنبيه الرسول بطريقة بلاغية مثيرة على مكانة تلاوة القرآن بالليل.

---

(١) أخرجه النسائي (١٧٨٣)، وأحمد في «المسند»(٣/ ٤٤٩/ح١٥٧٤٢) من حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «غريب الحديث»(٢/ ٤٦٧).

(٣) «حاشية السندي على النسائي»(٣/ ٢٥٧).

إذا كان النوم عن القرآن شبهه الرسول ﷺ باتخاذه «وِسَادَة»، فيبدو أن وسائدنا تَهتَّكَت مِن كثرة النوم عليها!

فاللَّهم ارحم الحال ولا تجعلنا ممن يتوسد محفوظاتنا من القرآن.

وفي كتاب اللَّه إشارات إلى ذلك الجمال الأخَّاذ لقراءة الوحي بالليل.

منها أن اللَّه تعالى أثنى مرة على قوم بذلك.. فقال تعالى في وصفهم: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران:١١٣].

هل تستطيع أن تمنع الشَّجْو حين تتخيل هؤلاء القوم الذين أحب اللَّه فيهم التغني بآيات الوحي إذا أوى الناس إلى فُرُشِهم؟

اللَّه جل جلاله يُثَمِّن منهم هذا الموقف ويُخَلِّده في كتابه العظيم.

أخذتُ مرة أتأمل مثل هذه الأخبار القرآنية النبوية عن جلال القرآن في الليل.

وأخذت أتساءل: ما سبب ذلك يا تُرى؟

هل هناك تفسير علمي لذلك؟

لَم أصل لنتيجة حاسمة، لكن بدت لي بعض الإشارات في كتاب اللَّه.

فقد أشار القرآن في غير موضع إلى كون الليل مَوضِعًا للسَّكَن

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [النمل: ٨٦].

ففي أصل التكوين البشري يحتاج الإنسان إلى السكينة بالليل.. وتكون النفس مهيأة بما يعتريها من هذا الهدوء.

والوحي الإلهي من أعظم أسباب السكينة.

ومن هذا الباب كانت أحد الوجوه في تفسير ما في التابوت في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

ولذلك فإن المُعرِضَ عن القرآن يُصاب بالآلام النفسية كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه:١٢٤].

فالحياة الطيبة الحقيقية لا تكون إلَّا لأهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل٩٧].

والمراد أن مَنْ تأمَّلَ اهتمام النبي ﷺ تجاه مصدر الصوت بالقرآن في الليل حين قال: «**إنّي لأعرفُ منازِلَ الأشعريين بالليل من أصواتهم بالقرآن**».

وحين قال لأبي موسى: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة**».

ومدْحَ النبي ﷺ لشُرَيح الحضرمي بأنه «**رَجُل لا يَتوسَّد القُرآن**».

وتنزل الملائكة كأنها المصابيح حين أخذ أُسَيد بن حُضَير يرتل سورة البقرة بالليل.

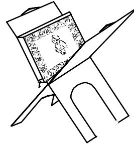
ومدْحَ اللَّه لأولئك القوم بأنهم ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [آل عمران: ١١٣].. إلخ

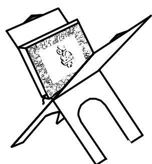
مَن تأمَّل ذلك كله.

فهل سيبقى ليله يتصرَّمُ في سهرات ترفيهية مع الأصدقاء، أو تصفح التُرَّهات الفكرية، ومقاطع (اليوتيوب) على شبكة (الإنترنت)؟!

هل سيرحل أكثرُ اليوم وليس فيه إلا انهماك في تتبع تعليقات غير نافعة على شبكات التواصل الاجتماعي؟

هاهو العمر يمضي والناس من حولنا لا يمضي أسبوع إلا ويقال: (أحسن اللَّه عزاءك في فلان).. فهل يا تُرى سيفنى العمر هكذا في الفضول والترفيه ونحن لم نتذوق حلاوة كتاب اللَّه آناء الليل؟





٤- مع القلوب الصخرية

الحديث عن قسوة القلب حديث ذو شجون، ومِن رزايا هذا الزمن أن صِرْنا لا نستحي من المناصحة عن قسوة القلب بينما قلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة. . لكن دعنا يا أخي نُدَرْدِشُ دَرْدَشَةَ المحبوسين يتشاجَون لبعضهم كيف يهربون من معتقَلات خطاياهم.

لقد قرأتُ كثيرًا كثيرًا في كتب الرقائق والإيمانيات والمواعظ، وجربت كثيرًا من الوسائل التي ذكروها، وأصْدُقك القول أنني رأيتها محدودة الجدوى، لا أُنكِر أن فيها فائدة، لكن ليست الفائدة الفعلية التي كنتُ أتوقعها، ووجدتُ العلاج الحقيقي الفَعَّال الناجِع المذهل في دواء واحد فقط. . دواء واحد لا غير.

وكُلَّما استعملته رأيتُ الشفاء في نفسي، وكلما ابتعدت عنه عادت لي أسقامي، هذا العلاج هو بكل اختصار «تَدَبُّر القُرآن».

دع عنك كل ما يذكره صيادلة الإيمان، ودع عنك كل عقاقير الرقائق التي يصفونها، واستعمل «تدبر القرآن» وسترى في نفسك وإيمانك وقوتك على الطاعات ونُفورك من المعاصي وراحة نفسك في صراعات المناهج والأفكار شيئًا لا ينقضي منه العجب.

كلُّ تقصير يقع فيه الإنسان، سواء كان تقصيرًا علميًّا بالتأويل والتحريف للشريعة، أو كان تقصيرًا سلوكيًّا بالرضوخ لدواعي الشهوة فإنه فرع عن قسوة القلب.

وهل تعلم كيف تحدث قسوة القلب؟

قسوة القلب ناشئة عن البعد عن الوحي، ألا ترى اللَّه تعالى يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

أرأيت يا أخي؟ إنه طول الأمد. . . !

لمَّا طال بهم الأمد قَسَتْ قلوبهم. . ولو جددوا العهد مع الوحي لَحَيَتْ قلوبهم.

فإذا قسا القلب تجرَّأ الإنسان على الميل بالشريعة مع هواه. .

وإذا قسا القلب تَهاوَن الإنسان في الطاعات واستثقلها. .

وإذا قسا القلب عَظُمَت الدنيا في عين المرء فأقبل عليها وأهمل حمل رسالة الإسلام للناس. .

وإذا قسا القلب ضَعُفَت الغيرة والحمية لدين اللَّه. .

وما العلاج إذًا؟

العلاج لما يَحِيك في هذه الصدور هو مداواتها بتدبر القرآن. . باللَّه عليك تأمَّلْ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن

رَبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧]

هكذا تقدم الآية المعنى بكل وضوح ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

ولكن ما الذي في الصدور؟!

في الصدور شهوات تَتَشَوَّف..

وفي الصدور شبهات تَنْبَح..

وفي الصدور حُجُبٌ غليظة..

وفي الصدور طبقات مطمورة من الرَّيْن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

وهذه الدوَّامات التي في الصدور دواؤها كما قال اللَّه:

﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

فإذا شُفِيَت الصدور وَجَدَت خِفة نَفْس في الطاعات..

وإذا شُفِيَت الصدور انقادت للنصوص بكل سلاسة ونفرت من التأويل والتحريف..

وإذا شفيت الصدور تَعَلَّقَت بالآخرة واستهانت بحُطام الدنيا..

وإذا شفيت الصدور امتلأت بحمل همٍّ إظهار الهدى ودين الحق على الدين كله..

وأعجب من ذلك: أنه إذا شفيت الصدور استقزمت الأهداف الصغيرة!.

تلك الأهداف التي تستعظمها النفوس الوضيعة..

الوَلَعُ بالشهرة..

وحبُّ الظهور..

وشغفُ الرياسة والجاه في عيون الناس..

وشهوة غُلبة الأقران..

النفوس التي شَفاها هذا القرآن.. ترى كل ذلك حطامًا إعلاميًّا ظاهره لذيذ فإذا جرب الإنسان بعضه اكتشف تفاهته.

وأنه لا يستحق لحظة من العناء فضلًا عن اللَّهاث سنوات.. فضلًا عن تقبُّل أن يقوم المرء بتحريف الوحي ليُقال: فلان الوسطي، الراقي، الوطني، التنموي، الحضاري، النهضوي، التقدمي،.. إلى غير ذلك من عصائب الأهواء التي تُعشِي العيون عن رؤية الحقائق.

هل تظن يا أخي أن تحريف معاني الشريعة لا صلة له بقسوة القلب؟!

أفلا تقرأ معي يا أخي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة:١٣].

على أية حال دعنا نُعِد قراءة آية الشفاء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس:٥٧].

يا اللَّه. هل قال اللَّه: «شِفاءٌ لِمَا فِي الصُّدور».

نعم؛ إنه ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

هكذا بكل وضوح.

هذا القرآن يا أخي له سِحر عجيب في إحياء القلب وتحريك النفوس وعمارتها بالشوق لباريها جل وعلا.

وسِرُّ ذلك أن هذا القرآن له سطوة خفية مُذهِلة في صناعة الإخبات والخضوع في النفس البشرية كما يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤].

فإذا أَخبَتَت النفوس..

وانفعلت بالتأثر الإيماني..

انحلت قيود الجوارح..

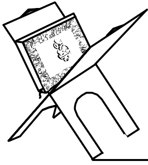
ولهج اللسان بالذِّكر..

وخفقت الأطراف بالركوع والسجود والسعي لدين اللَّه.. كما يصور الحق تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]

لاحظْ كيف تقشعر.. ثم تلين.

إنها الرهبة التي تليها الاستجابة.

وتلك هي هيبة القرآن.



٥ - الشاردون

حالات الانحراف عن التَّديُّن حالات تُذِيب القلب مرارةً، وخصوصًا إذا كان المنحرف صديقًا قريبًا عِشتَ معه أيام العِلم والإيمان.

وحالات الانحراف بينها تفاوت كبير:

فبعضهم مشكلته (علمية) بسبب رهبة عقول ثقافية كبيرة انهزم أمامها.

وبعضهم مشكلته (سلوكية) بسبب ضعفه أمام لذائذ اللَّهو والترفيه.. وإن كان الأمر دومًا يكون مُرَكَّبًا من هوى وشبهة، لكنه يكون أغلب لأحدهما بحسب الحال، فإما تعتريه شبهة تقوده للتمرغ في الشهوات، وإما تغلبه شهوة فيتطلب لها الشبهات والمخارج والحيل.

وأنا إلى هذه الساعة على كثرة ما تعاملتُ مع هذه الحالات لا أعرف علاجًا أنفع من «تدبر القرآن» فإن القرآن يجمع نوعي العلاج (الإيماني والعلمي) وهذا لا يكاد يوجد في غير القرآن، فالقرآن له سر عجيب في صناعة الإخبات في النفس البشرية ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ

قُلُوبُهُمْۗ﴾ [الحج: ٥٤] وإذا تهيأ المحل بالإيمان لَانَ لقبول الحق والإذعان له كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي القرآن من بيان العلم والحق في مثل هذه القضايا المنهجية ما لايوجد في غيره.

ومفتاح الهداية: مقارنَة هدي القرآن بسلوكيات التيارات الفكرية.

أعني: أنه إذا رأى مُتَدَبِّرُ القرآن تفريقَ القرآن بين المعترف بتقصيره حيث جعله قريبًا من العفو ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وبين تغطية وتبرير التقصير بحيل التأويل الذي جعله اللَّه سببًا للمَسْخ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة: ٦٥].

ومجردُ المعصية بالصيد في اليوم المُحَرَّم لا تستحق المسخ، فقد جرى من بني إسرائيل ما هو أكثر من ذلك ولم يمسخهم اللَّه، ولكن الاحتيال على النص بالتأويل ضاعَف شناعتها عند اللَّه جل وعلا.

وإذا رأى متدبرُ القرآن -أيضًا- تعظيمَ القرآن لمرجعية الصحابة في فهم الإسلام، وربطه فهم الإسلام بتجربة بشرية، كقوله

تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ففي مثل هذه الآيات البينات يكشِف- تعالى- أن الوحي ليس نصًّا مفتوحًا، بل هو مرتبط بالاهتداء بتجربة بشرية سابقة، فيأمرنا صريحًا أن نؤمن كما آمن الصحابة، وأن نتبع الصحابة بإحسان، ويأمرنا بكل وضوح أن نرد الأمر إلى أولي العلم الذين يستنبطونه.

وهذا كله يُبَيّن أن الإسلام ليس فكرة مجردة مفتوحة الدّلالات يذهب الناس في تفسيرها كل مذهب.. ويُتاح الفهم لكل شخص كما يميل.. بل هناك (نموذج سابق) حاكِم للتفسيرات اللاحقة للنص.

وإذا رأى متدبرُ القرآن - أيضًا- بيانَ القرآن لتفاهة الدنيا، وكثرة ما ضرب اللَّه لذلك من الأمثال؛ كنهيه نبيه ﷺ عن الالتفات إلى الدنيا ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

فانظر منزلة الدنيا في معيار القرآن !.

وإذا رأى متدبرُ القرآن -أيضًا- ما في القرآن من بيان اللَّه لحقارة الكافر وانحطاطه، حيث جعله القرآن في مرتبة الأنعام، والدَّواب، والحمير، والكِلاب، والنجاسة، والرجس، والجهل، واللاعقل، والعمى، والصمم، والبَكَم، والضلال، والحيرة، . . وغيره من الأوصاف القرآنية المُذهِلة التي تملأ قلب قارئ القرآن بأقصى ما يمكن من معاني ومرادفات المهانة والحقارة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد:١٢].

وقوله: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥].

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وأمثالها كثير.

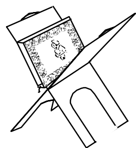
وإذا رأى متدبرُ القرآن - أيضًا- ما في القرآن من عناية شديدة بالتحفظ في العلاقة بين الجنسين، كوضع السواتر بين الجنسين كما في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب:٥٣] وحثه المؤمنات على الجلوس في البيت ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ونهيه عن تلطف المرأة في العبارة ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ونهيه عن أي حركة ينبني عليها إحساس الرجل بشئ من زينة المرأة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾ [النور: ٣١]. ونحو ذلك.

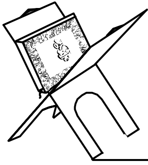
وإذا رأى متدبرُ القرآن - أيضًا- عظمةَ تصوير القرآن للعبودية، كتصويره المؤمنين في ذكرهم لله على كل الأحوال ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وحينما أراد أن يصف الصحابة بأخص صفاتهم قال:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] وكيف وصف الله ليلهم الذي يذهب أغلبه في الصلاة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

والمراد: أنه إذا رأى متدبرُ القرآن هديَ القرآن في هذه القضايا وأمثالها، ثُم قارنها بأحوال التيارات الفكرية المعاصرة، ورأى ما في كلام هؤلاء من تأويلات للنصوص -لِتُوافقَ الذوقَ الغربي-، والإزراءِ باتباع السلف في فَهم الإسلام، وملء القلوب بحب الدنيا، واللَّهَج بتعظيم الكفار، وتهتيك الحواجز بين الجنسين، والارتخاء العبادي الظاهر... الخ = إذا قارن بين القرآن وبين أحوال هؤلاء انفتح له باب معرفة الحق.





٦- تطويل الطريق

حينَ أسمعُ بعض المُفَكرين الإسلاميين يتكلمون عن ضرورة مقاومة وتفنيد الأفكار الضالة الجديدة عبر دراسات فكرية موسعة؛ فلا أخفي أنني أحترم تمامًا حرصهم على سلامة التصورات الإسلامية من الاجتياح العَلماني المُعاصِر.

لكنني أرتاب كثيرًا في نجاعة هذه المبالغة في التعويل على الدراسات الفكرية.

عندي وجهة نظر لكني لا أبوح بها كثيرًا. . لأني أرى بعض المفكرين الإسلاميين يتصور أنها نوع من التثبيط والتخذيل، فلذلك أَلُوذ بالصمت.

وجهة نظري هذه بكل اختصار هي أن أمر الانحرافات الفكرية المعاصرة أسهل بكثير مما نتصور.

فلو نجحنا في تعبئة الشباب المسلم للإقبال على القرآن، وتدبر القرآن، ومدارسة معاني القرآن، لَتَهَاوَتْ أمام الشاب المسلم - الباحث عن الحق - كلُّ التحريفات الفكرية المعاصرة ريثما يختم أول «ختمة تدبر».

باللَّه عليكم لو قرأ الشاب المسلم - الباحث عن الحق - آيات

القرآن في حقارة الكافر.

وآيات القرآن في «وسِيليَّة» الدنيا و«مركزية» الآخرة.

وآيات القرآن في التحفظ والاحتياط في العلاقة بين الجنسين.

وآيات القرآن في إقصاء أي فكرة مخالفة للوحي.

وآيات القرآن في وجوب الوصاية على المجتمع عبر شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وآيات القرآن في تقييد الحريات الشخصية بالإنكار والاحتساب.

وآيات القرآن في أزلية الصراع بين الحق والباطل.

وآيات القرآن في وجوب هيمنة الشريعة على كل المجتمعات.

وآيات القرآن في نفي النسبية وإثبات اليقين.

وآيات القرآن في مسخ أقوام - قردة خاسئين- لمَّا تَسلَّطوا على ألفاظ النصوص بالتأويل لِتُوافق رغباتهم وأهوائهم.

وآيات القرآن في ارتباط الكوارث الكونية بالمعاصي والذنوب.

وآيات القرآن في ترتيب جدول أولويات النهضة بين التوحيد والإيمان والفرائض والفضيلة وإعداد القوة المَدنية.. الخ

فباللَّه عليكم، قولوا لي ماذا سيتبقى -بعد ذلك- من أطلال الانحرافات الفكرية المعاصرة؟!

حين يقرأ الشاب المسلم -الباحث عن الحق- مثل هذه الآيات فإنه ليس أمام (خطاب فكري) يستطيع التخلص منه عبر مخرج (الاختلاف في وجهة النظر).

بل هو أمام «خطاب اللَّه» مباشرة.

فإما الانصياع، وإما النفاق الفكري !.

ولا تسويات، أو حلول وسط، أمام أوامر ملك الملوك ﷻ.

لنجتهد فقط في تحريض وشحذ العقل المسلم المعاصر على الإقبال على القرآن، وتدبر القرآن، في تجرد معرفي صادق للبحث عن الحقيقة.. وصدقوني سنتفاجأ كثيرًا بالنتائج.

قراءة واحدة صادقة لكتاب اللَّه.. تصنع في العقل المسلم ما لا تصنعه كل المطوَّلات الفكرية بِلُغتها الباذخة وخيلائها الاصطلاحي.

قراءة واحدة صادقة لكتاب اللَّه.

كفيلة بقَلْب كل حيل الخطاب الفكري المعاصر رأسًا على عَقِب.

هذا القرآن حين يُقرِّر المسلم أن يقرأه بـ«تجرُّد».. فإنه لا يُمكِن أن يخرج منه بمثل ما دخل عليه.

هذا القرآن يَقلِب شخصيتك، ومعاييرك، وموازينك، وحميَّتَك، وغيرتك، وصيغة علاقتك بالعالم، والعلوم،

والمعارف، والتاريخ.

وخصوصًا.. إذا وضع القارئ بين عينيه أن هذا القرآن ليس مجرد «معلومات» يتعامل معها ببرود فكري.

بل هو «رسالة» تحمل قضية ودَوِيًّا.

وإن من أكثر الأمور لفتًا للانتباه في هذا القرآن العظيم.. هي ماحكاه اللَّه عن انفعال الأنبياء بالقرآن انفعالًا وجدانيًّا وعاطفيًّا عميقًا.

خُذْ مثلًا:

لمَّا ذكر اللَّه مسيرة الأنبياء عَقَّب بذكر حالهم إذا سمعوا آيات الوحي حيث يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

يا ألله. هذه الآية تصور «جنس الأنبياء» لا بعضهم.

فانظر باللَّه عليك كيف يبلغ اتصالهم بـ«كلام اللَّه» مبلغ الخرور إلى الأرض ودموعهم تذرف بكاءً وتأثرًا.

أي انفعال وجداني أعظم من ذلك؟!

ويصف تعالى مشهدًا آخر يأسر خيال القارئ، حين يُصوّر أهل الإيمان وهم يستقبلون آيات الوحي فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة:٨٣].

ويصف تعالى مرة أخرى أثر القرآن الجسدي وليس الوجداني فقط فيقول تعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

على أيَّة حال..

لو أفلحنا في إقناع الشاب المسلم بالإقبال على القرآن بالتدبر الصادق المتجرد للبحث عن الحق.

فاعتبروا أن «الدَّور المعرفي» تقريبًا انتهى.

وبقيت مرحلة الإيمان.

فمَن كان معه إيمان وخوف مِن اللَّه فسيحمله على الانقياد والانصياع للَّه سبحانه.

ومن أرخى لهواه العِنان.. فسيتخبط في شُعَب النفاق الفكري.. حيث سيبدأ في أن يعلن على الملأ – كما يُعلِن غيره – أنه «يحترم ضوابط الشريعة».. لكنه في دخيلة نفسه يُدرِك أن كل ما يقوله مخالف للقرآن..!

بقي الاستثناء الوحيد هاهنا.

وهو أنني أقول: إن من كانت نفسيته المعرفية سوية – أعني أنها تنظر في «جوهر البرهان» وليس في «شكليات الخطاب» – فلن يحتاج إلا لقراءة القرآن بتجرد.

أَمَّا مَن كان يُعاني من عاهات في شخصيته الفكرية. . بحيث أنه يقدم وهَج (الديكور) اللغوي على جوهر البرهان. . فهذا النوع المريض من الناس قد يحتاج فعلًا بعض الكتابات الفكرية التي تخدعه ببعض الطِّلاء التسويقي. . كما قال الإمام ابن تيمية في حادثة مشابهة في كتابه «الرد على المنطقيين»[١]: «**وبعض الناس: يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثرَ مقدماتٍ وأطول كان أنفع له، لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة، فإذا كان الدليل قليل المقدمات، أو كانت جَليَّة، لم تفرح نفسه به...، فإن مِن الناس مَن إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم، أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته، لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعِلم، فيُحِب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات**».

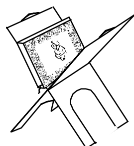
أخيرًا:

أعطوني ختمة واحدة بتجرد.

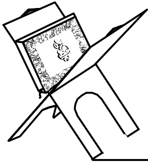
أعطكم مسلمًا حَنِيفًا سنيًّا سلفيًّا.

ودعوا عنكم خرافة الكتب الفكرية الموسعة.

ولنجعل القرآن «أصلًا» وغيره من الدراسات الفكرية مجرد «تبع».



(١) (ص: ٢٥٥).



٧- من مناطق التدبر

كثير من الناس يتساءل ويقول: ماذا أتدبر بالضبط في القرآن؟ والحقيقة أن القرآن فيه حقائق وإشارات كثيرة تحتاج إلى التدبر، ثمة مفاتيح كثيرة لفهم القرآن.

أعظم وجوه ومفاتيح الانتفاع بالقرآن تدبر ما عرضه القرآن من «حقائق العِلم باللَّه»، فما في القرآن من تصورات عن الملأ الأعلى هي من أعظم ما يُزَكي النفوس، وكثير من المنتسبين للفكر المعاصر يظن الأهم في القرآن هو التشريعات العملية، وأما باب العلم الإلهي فهو قضية ثانوية، ولا يعرف أن هذا هو المقصود الأجَل والأعظم.

ولذلك قال الإمام ابن تيمية: «**فإن الخطاب العلمي في القرآن أشرف من الخطاب العملي قدرًا وصِفة**»[١].

وأنا شخصيًّا إذا التقيتُ بشخصية غربية متميزة في الفكر، أو القانون، أو غيرها من العلوم أجاهد نفسي مجاهدة على احترام تميزه، لأنني كلما رأيتهم في غاية الجهل باللَّه ﷻ، امتلأت نفسي إزراءً بهم.

---

(١) «درء التعارض» (٥/ ٣٥٨).

ما فائدة أن تعرف تفاصيل جزء معين من العلوم وأنت جاهل بأعظم مطلوب للإنسان؟!.

إنه لا يختلف عن سائق مركبة يتقن تفاصيل بعض الطرق الفرعية ويجهل الطرق الرئيسية في المدينة.. فهل مثل هذا يصل؟! أي تخلُّف وانحطاط معرفي يعيشه هؤلاء الجهلة بالعلم الإلهي.

ويؤلمني القول بأن كثيرًا من المنتسبين للفكر العربي المعاصر يجهلون دقائق العلم باللَّه التي عرضها القرآن.

وأما أئمة السلف الذين ورثنا عنهم علوم الشريعة فقد كانوا في ذروة التبحر في دقائق القرآن، فمن تأمَّل - مثلًا - رسالة الإمام أحمد في «الرد على الزنادقة»، أو رسالة الدارمي في «النقض على المريسي»، فستستحوذ عليه الدهشة من عمق علمهم بالقرآن وما فيه من أسرار المعرفة الإلهية، وشدة استحضار الآيات وربط ما بينها، ليست معرفة آحاد وأفراد الألفاظ فقط، بل معرفة السلف بالقرآن مركبة، فتجدهم يلاحظون منظومة لوازم معاني القرآن، ويستخلصون في تقريراتهم حصيلة توازنات هذه المعاني القرآنية.

ومن وجوه الانتفاع بالقرآن - أيضًا- تدبُّر أخبار الأنبياء التي ساقها القرآن وكرَّرها في مواضع متعددة، وبَدَهِيٌّ أن هذه الأخبار عن الأنبياء ليست قَصصًا للتسلية، بل هي (نماذج) يريد القرآن أن يُوصِل من خلالها رسائل تضمينية، فيتدبر قارئ القرآن ماذا أراد اللَّه بهذه الأخبار؟

مثل: التفطن لعبودية الأنبياء وطريقتهم في التعامل مع اللَّه كما قال الإمام ابن تيمية: «**والقرآن قد أخبر بأدعية الأنبياء، وتوباتهم، واستغفارهم**»(١).

وتلاحظ أن اللَّه يُثَنِّي ويعيد قصص القرآن في مواطن متفرقة، وليس هذا تكرارًا محضًا، بل في كل موضع يريد اللَّه تعالى أن يوصل رسالةً ما، وأحيانًا أخرى يكون في كل موضع إشارة لجزء من الأحداث لا يذكره الموضع الآخر، كما قال الإمام ابن تيمية- مثلًا-: «**وقد ذكر اللَّه قصة قوم لوط في مواضع من القران في سورة هود، والحِجر، والعنكبوت، وفي كل موضع يَذكر نوعًا مما جرى**»(٢).

والمُهِم هاهنا: أن تدبر أخبار الأنبياء، وأخبار الطغاة، وأخبار الصالحين، في القرآن، ومحاولة تَفَهُّم وتحليل الرسالة الضمنية فيها؛ من أعظم مفاتيح الانتفاع بالقرآن.

ومن أعظم وجوه الانتفاع بالقرآن -أيضًا- أن يضع الإنسان أمامه على طاولة التدبر كل الخطابات الفكرية المعاصرة عن النهضة، والحضارة، والتقدم، والرقي، والإصلاح، والاستِنارة، الخ.. ويضع كل القضايا التي يرون أنها هي معيار التقدم والرقي.

ثم يتدبر قارئ القرآن أعمال الإيمان التي عرضها القرآن كمعيار

---

(١) «تلخيص الاستغاثة» (١/ ١٦١).
(٢) «الرد على المنطقيين»(٤٩٤).

للتقدم والرقي.

تأمل فقط!. باللَّه عليك، كيف ذكر اللَّه الانقياد، والتوكل، واليقين، والإخلاص، والاستغفار، والتسبيح، والصبر، والصدق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر... الخ، في عشرات المواضع.

بل بعض هذه الأعمال بعينها ذكرت في سبعين موضعًا.

ثم قارن حضور هذه القضايا في الخطابات الفكرية لِتَجِدَهُ حضورًا شاحبًا خجولًا.

أيُّ إفلاس فكري أن تكون الأعمال التي يحبها اللَّه ويثنِّي بها ويجعلها مقياس الرقي والتقدم والتنوير هي في ذيل القائمة لدى الخطابات الفكرية المعاصرة المخالفة لأهل السُّنة.

يا خيبة الأعمار!.

حين يتدبر قارئ القرآن كيف وصف اللَّه القرآن بأنه هدى وبينات ونور فإنه يستنتج من ذلك مباشرة بأن مراد اللَّه من عباده في القرآن ليس لغزًا.. هل يمكن أن يكون اللَّه تعالى يعظم ويمنح الأولوية لتلك القضايا التي ترددها الخطابات الفكرية ثم يكرر في القرآن غير ذلك؟!

هل القرآن يضلل الناس عن مراد اللَّه؟!

شرَّف اللَّه القرآن عن ذلك، ولذلك كان الإمام ابن تيمية يقول: «**وما قصد به هدى عامًا كالقرآن، الذي أنزله اللَّه بيانًا للناس، يذكر**

فيه من الأدلة ما ينتفع به الناس عامة»[١].

وهذا لا يعني أن الأئمة الربانيين لا يختصهم اللَّه بمزيد فَهْم للقرآن، وتتكشف لهم دلالات وأسرار لا تنكشف لغيرهم من الناس، فالقلبُ المعمور بالتقوى يُبصِر ما لا يُبصِرُه مَن أغْطَشَت عينَه النزواتُ–نسأل اللَّه أن يُسْبِلَ علينا سِتر عفوه– وقد أشار الإمام ابن تيمية لذلك في مواضع كثيرة من كُتُبِه، كقوله: «**ومن المعلوم أنه في تفاصيل آيات القرآن من العلم والإيمان ما يتفاضل الناس فيه تفاضلًا لا ينضبط لنا، والقرآن الذي يقرأه الناس بالليل والنهار يتفاضلون في فهمه تفاضلًا عظيمًا، وقد رفع اللَّه بعض الناس على بعض درجات»**[٢].

ومن أعظم مفاتيح الانتفاع بالقرآن – أيضًا – أن يستحضر متدبر القرآن أن جمهور قرارات القرآن وأحكامه على الأعيان والأشياء إنما هي (أمثال).

ومعنى كونها أمثالًا، أي: (يُعتبر بها ما كان مِن جنسها).

بمعنى: أن القرآن يُقدِّم في الأصل نماذج لا خصوصيات أعيان، وقد أشار القرآن لذلك كثيرًا كقوله تعالى في سورة الحشر: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقوله في سورة الروم: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ

(١) «مجموع الفتاوى»: (٩/ ٢١١).
(٢) «درء التعارض»(٧/ ٤٢٧).

مَثَلٍۚ﴾ [الروم:٥٨].

فماذا يريد اللَّه في مطاوي هذه الأمثلة القرآنية؟

هذا أفق واسع للتدبر..

لا شك أن تنبيهات القرآن على مركزية «تدبر القرآن» في صحة المنهج والطريق أنها دافع عظيم للتدبر..، لكنَّ ثمة أمرًا آخر على الوجه المقابل لهذه القضية.. ومعنى مُنذُ أن يتأمله الإنسان يرتفع لديه منسوب القلق قطعًا.. وهو أنَّ مَن أعرضَ عن تَدَبُّر القرآن فإن اللَّه قدَّر عليه أصلًا ذلك الانصراف؛ لأن اللَّه تعالى سبق في علمه أن هذا الإنسان لا خير فيه، ولو كان في هذا المُعرِض خير لوفَّقه اللَّه للتدبر والانتفاع بالقرآن.

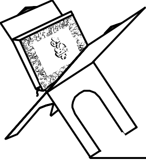
وقد شرح القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣].

كلما رأى الإنسان نفسه مُعرِضًا عن تدبر القرآن، أو معرضًا عن بعض معاني القرآن، ثم تَذَكَّرَ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ يَجِفُّ ريقُهُ من الهلع لا محالة.

على أية حال.. هذا القرآن ينبوع يتنافس الناس في الارتشاف منه بقدر منازلهم، كما قال الإمام ابن تيمية: «**والقرآن مورد يرده الخلق كلهم، وكل ينال منه على مقدار ما قَسَمَ اللَّه له**»(١).

---

(١) «درء التعارض: ٧/ ٤٢٧».



٨- كل المنهج في أم الكتاب

حين يقول لك نبي اللَّه ﷺ: إن أعظم سورة في القرآن هي سورة الفاتحة، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد بن المُعَلَّى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «**لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**»[١].

فهل هذه المنزلة لسورة الفاتحة منزلة اعتباطية؟

هل اللَّه -جل وعلا- يختار أن تكون سورة الفاتحة أعظم وحي أوحاه سبحانه تعالى طوال تاريخ النبوات هكذا دون حيثيات موضوعية أعطت هذه السورة العظيمة مرتبتها الأولوية؟

كم مِن الوقت مَنَحْنَاهُ لتدبر هذه السورة العظيمة والتساؤل عن مغزى هذا التعظيم الإلهي لها؟

حين يتدبر القارئ مضامين هذه السورة فإنه لا يستطيع أن يكف عن نفسه الذهول كيف تاهت التيارات الفكرية المخالفة لأهل السنة في قضايا وجزئيات ومسائل جعلوها أعظم مطالبهم،

(١) أخرجه: البخاري(٤٤٧٤).

وزهدوا في مطالب أخرى جاءت هذه السورة العظيمة بتقريرها؟!

تأمل كيف بدأت هذه السورة بثلاث آيات كلها ثناء على اللَّه؛ تعظيمه -جل وعلا- بربوبيته للعالمين، ثم تعظيمه -جل وعلا- بكمال رحمته، ثم تعظيمه -جل وعلا- بملكه لليوم الآخر.

القارئ يحمد اللَّه بربوبيته للعالمين، وربُّ العالمين يجيبه فيقول: «**حَمِدَني عبدي**»، ثم يواصل القارئ فيثني على اللَّه بكمال رحمته، ورب العالمين يقول: «**أثنى علي عبدي**»، فإذا بلغ القارئ الآية الثالثة فأثنى على اللَّه بملكه لليوم الآخر قال اللَّه: «**مَجَّدني عبدي**»[١].

كثيرًا ما أتساءل هل نحن حين نقرأ الفاتحة ونمر بهذه الآيات نستشعر أن رب الأرض والسماوات يقول لنا ذلك؟!

إنه اللَّه، يتحدث عنا ونحن نقرأ الفاتحة.. هل تتصور؟!

فباللَّه عليك تأمل في هذه الآيات الثلاث التي ذكر اللَّه تعالى في الحديث القدسي في« صحيح مسلم» أنها نصف الفاتحة، حين قال: «**قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**».

هذه الآيات الثلاث التي هي نصف الفاتحة، أي إنها نصف أعظم سورة في القرآن، كلها حمد للَّه وثناء على اللَّه وتمجيد للَّه.

باللَّه عليك تأمل في هذه الآيات الثلاث، ثم انتقل بذهنك

---

(١) أخرجه: مسلم (٩٠٤).

وتذكر جدل المذاهب الفكرية المعاصرة حول قضية «ترتيب الأولويات». .

سألتَك باللَّه! هل رأيتَ واحدًا منهم يتحدث عن الثناء على اللَّه وتوقير اللَّه وتعظيم اللَّه باعتباره أولوية من أولويات الإصلاح؟

باللَّه عليك، هل رأيت أحدًا منهم يتحدث عن عمارة النفوس بتمجيد الباري باعتبارها أولوية من أولويات النهضة والتقدم؟

حين أتأمل في النصف الأول من الفاتحة، وأقارن دعاة أهل السنة بكلام المذاهب الفكرية يدركني الرِّثاء الحزين لأحوال هذه المذاهب الفكرية، كيف تحيروا في أعظم المطالب، وبعضهم فيه ذكاء واطلاع، ولكن هذه الأمور بابها التوفيق الإلهي، وكم تَرَدَّت نفوس كثيرة حين تسرب إليها شيء من كبرياء الثقافة وزهو الذكاء.

فإذا تجاوزْتَ هذه الآيات الثلاث وبلغْتَ جوهرة السورة كلها ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾. . فتقديم المعمول «**إِيَّاكَ**» على العامل «**نَعۡبُدُ**» يفيد الحصر، فلا يُعبَد إلَّا اللَّه، والعبادة لفظ شامل، فإذا نَطَقْتَ بهاته الجملة التي لا تتجاوز كلمتين ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾. . تهاوت أمام ناظِرَيْكَ كلُّ المألوهات من دون اللَّه.

تذكرْتَ طوائف تنتسب للقِبلة وتستغيث بالحُسين، وهذه الآية تقول: لا يُستَغَاث بالحسين من دون اللَّه.

تذكرتَ مذاهب تمنح حق التشريع للبرلمان، وهذه الآية تقول: لا يَملِك حق التشريع إلا اللَّه.

تذكرتَ من يطاوع هواه حتى كأنه إله له كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وهذه الآية تقول: لا يُؤلَّه إلا اللَّه.

تذكرتَ شخصيات تعبد المنصِب والمال، كما قال ﷺ: «**تَعِسَ عبْدُ الدينار**»(١).

وهذه الآية تقول: لا يُعبَد إلا اللَّه.

تذكرتَ مَن يُذعِن للشيطان حتى كأنه يعبده كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] وكما قال اللَّه عن الخليل: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]

وهذه الآية تقول: لا يُذْعَن إلا للَّه.

تذكرتَ حالات يلتفت فيها القلب إلى ثناء الناس ومديحهم، وهذه الآية تقول لك: لا يراد بالعمل إلَّا وجه اللَّه.

تذكرتَ نِيَّات عَزَبَتْ عن اللَّه إلى دنيا تُصِيبها، وهذه الآية تقول: لا يُنْوَى العمل إلا للَّه.

وتَذكرتَ، وتذكرتَ، وتذكرتَ.

وهذه الآية العظيمة تُسقِط كل مُطَاع، أو مَتبوع، أو مألوه إلا اللَّه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.. هي جوهر مشروع الإصلاح، وهي قاعدة النهضة، وهي مختبَر الحضارة، وهي معيار التقدم، وهي خُطَّة

(١) أخرجه: البخاري (٦٤٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التنمية.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.. هي قلب سورة الفاتحة، قلب أعظم سورة في كتاب اللَّه، ومع ذلك، كم تاهت عن هذه السورة، بل عن هاتين الكلمتين فقط أممٌ من الخلق؟!.

آية نكررها في اليوم عشرات المرات في كل ركعة من الفرائض والنوافل.

لماذا؟ لأنها «منهج حياة».

تأمل فقط في أحد تطبيقات هذه الآية كيف يحكِّمها أئمة الدين في تفاصيل المسائل، يقول ابن تيمية: «**والمقصود أن صاحب الزيارة الشرعية إذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ **كان صادقًا؛ لأنه لم يعبد إلّا اللَّه ولم يستعن إلا به، وأما صاحب الزيارة البدعية فإنه عبَدَ غيرَ اللَّه واستعان بغيره، فهذا بعض ما يبين أن «الفاتحة» أُمُّ القرآن**»[1].

وأما الاستعانة في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهي عبادة مشمولة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولكن اللَّه أفردها بالذكر في هذا الموضع من فاتحة الكتاب ليكون تنبيهًا مستمرًّا يسمعه المؤمن يذكِّره بأن المطلوب الأكبر وهو «العِبَادة» لا يكون إلا بـ«الاستعانة»، وهذا الموضع في تعقيب العبادة بالاستعانة موضع أسهَبَ فيه أئمة التألُّهِ والسلوك وفقهاء الطريق إلى اللَّه في تأملاتهم الإيمانية.

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٦٤).

ثُمَّ تنتقل السورة إلى النصف الثاني الذي ذكره اللَّه في الحديث القدسي السابق، ويبدأ بعد الثناء والتوحيد، حالة الدعاء، فإن اللَّه قال: «**هذا لِعَبدي، ولِعَبدي ما سأل**».

حسنًا... ما الدعاء الذي اختاره اللَّه لنا بأن ندعو به؟

مطلوبات كثيرة، وهانحن الآن في أعظم سورة، وقد بلغْنا الموضع الذي اختار اللَّه أن يكون موضع دعاء، واللَّه سبحانه هو الذي اختار لنا هذا الدعاء.

أتدري ما الذي اختاره اللَّه؟

إنه الدعاء بـ «الهداية» !.

لو قيل لشخص: ادع اللَّه كثيرًا أن يهديك، لاستغرَب، وشعر أن هذا أمر ثانوي، واللَّه تعالى يختار لنا أن يكون دعاء الفاتحة هو سؤال الهداية!

إذا كان اللَّه سبحانه اختار أن يكون دعاء أعظم سورة في القرآن هو «سؤال الهداية» فهذا يعني أن الضلال وشيك خطير مَخوف، وإلَّا لم يُفرِد اللَّه سؤاله بهذه الخصوصية، لو كان الضلال أمرًا مستبعدًا، أو مما يجب أن لا ننشغل بالخوف منه، أو يجب أن لا نكون سَوْداويِّينَ، لَمَا كان اللَّه ﷻ أرحم الراحمين، والذي يريد لنا الخير أكثر مما نريده لأنفسنا- يختار أن يكون دعاء الفاتحة هو: «طلب الهداية».

ولاحظِ المقام الذي يدعو فيه المرء بالهداية؟

إنه ليس مقام معصية. ولا مقام ضلال.

بل يلح الإنسان على اللَّه في طلب الهداية وهو في أَجَلِّ لحظات الهداية!

قائم بين يدي اللَّه ويسأله الهداية!

فكيف بالسادر عن اللَّه؟

فكيف بالغافل اللاهي؟

ومع ذلك يستعظم أن يسأل اللَّه الهداية!

في المواضع العظيمة، لا يُختار من الدعاء إلا أعظمه، وأعظم الدعاء ما خاف الإنسان من ضده. فإذا كان اللَّه اختار لنا «تكرار طلب الهداية» في قلب أعظم سورة تكَلَّم بها ﷻ، دل هذا على أن ضد الهداية وهو الضلال أمرٌ أقرب إلى أحدنا من عمامته التي تحيط برأسه.

دل هذا على أننا نسير في حقل ألغام من الانحرافات.

دل هذا على أن هذه الحياة الدنيا محفوفة بكلاليب الباطل تلتقط الناس يَمنة ويَسرة.

ولذلك اختار أرحم الراحمين لنا أن نسأله الهداية في كل ركعة من صلاتنا.

إذا رأيتَ كيف خَصَّ اللَّه الهداية هاهنا بطريقة تثير القلق من الضلال، فقارنْها بالبرود الفكري المعاصر تجاه قضية الهداية

والضلال، وتعاملنا معها بمنطق سَيْبِيرِيٍّ[1] جامد، ليس فيه خوف ووجل وحرص على الحق.

قال الإمام ابن تيمية: «**وإنما فرض عليه من الدعاء الراتب الذي يتكرر بتكرر الصلوات، بل الركعات فرضها ونفلها، هو الدعاء الذي تتضمنه أُمُّ القرآن وهو قوله تعالى**: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾، **لأن كل عبد فهو مضطر دائمًا إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الصراط المستقيم**»[2].

وما إن يتجاوز القارئ لفظ الهداية... إلَّا وتبدأ أولى محطات الإشارة إلى «الصراع».

ذكر اللَّه بعد ذلك مباشرة الإشارة إلى محل الهداية وهو «الصراط» وهذا يعني أنه صراط واحد، وليس متعددًا.

هل اكتفى بذلك؟ لا... بل وصفه بأنه «مستقيم» أيضًا.

فهو صراط لا يحتمل المنعطَفات، فمن خرج عن هذا الصراط فقد خرج عن الإسلام.. ومن دخل في هذا «الصراط» لكن لم يراعِ استقامته فهو من منحرفي أهل القبلة.

(١) «المنطق السيبيري» نسبة إلى مقاطعة «سيبيريا»، والتي تعتبر أكبر صحراء جليدية في العالم، وتقع في الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا، ونظرًا لهذه المساحات المتجمدة تضرب مثلًا في جمود المنطق والتصور. والله أعلم.

(٢) «مجموع الفتاوى»(٢٢/ ٣٩٩).

فالصراط وصف للإسلام.

والمستقيم وصف للسَّير على السنة.

فالاستقامة وصف أضيقُ من الصراط.

حسنًا.. وصَف اللَّه محل الهداية وصفًا نظريًّا بأنه «صِرَاط مُستَقِيم».

هل اكتفى بهذا القدر؟ لا.

بل زاد بأن ربَطه بتجربة بشرية معروفة، فقال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

قارِن هذا الربط بأولئك الذين يقولون: طريقة الصحابة ومن تَبِعَهم لا تَلزمنا!

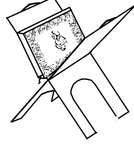
اللَّه تعالى يوضح لنا الصراط بأنه صراط الذين أنعم عليهم، ومِن أعظم مَن يدخل هذا الوصف أصحاب النبي ﷺ، وهؤلاء يقولون طريقة الصحابة لا تلزمنا!

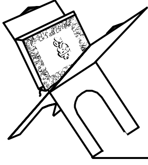
ثم تُختتم هذه السورة برسم أسباب الافتراق الكبرى وآثارها، حيث يقع الصراط المستقيم بين طريقين.

طريق المغضوب عليهم؛ وهم الذين حَصَّلوا العلم وأهملوا العمل.. وطريق الضالين؛ وهم الذين اجتهدوا في العمل بلا علم.

وأهل الصراط المستقيم جمعوا العلم والعمل.

فانظر كيف تصوغ هذه «الفاتحة» العظيمة حياة المسلم، وهو يكررها كل يوم.





٩- دوي الليالي الرمضانية

من الذكريات التي تنتاب خاطري بشكل عشوائي صورة تتراءى لي كثيرًا من أحد مَسَاءات رمضان.

فمِن المشاهد في ليالي رمضان، وخصوصًا في هذا العِقد الأخير، أن المساجد صارت تتفاوت كثيرًا في توقيت صلاتي التراويح والتهجد بحسب ما يرتاح له أهل كل حي ويتوافقون عليه.

ولذلك فكثيرًا ما تكون في منزلك -قد انتهيتَ من الصلاة- بينما تسمع بعض المساجد المجاورة ما زالوا في جوف صلاتهم.

وهذا ما وقع لي ذات ليلةٍ تكاد ذكراها تَتَهَدَّجُ في نفسي.

كنتُ في غرفتي الخاصة أعِدُّ بعض الأوراق، وفي ثنايا انهماكي في هذه المهام.. تسرب من خلال النافذة صوت مسجد (الشيخ القارئ خالد الشارخ)، وهو مسجد تتلبَّدُ عليه وفود الشباب والفتيان من الأحياء المجاورة في شرق الرياض.

توقفتُ عن العمل..

وفتحت النافذة وكانت ليلة عليلة..

وكادت أذني أن تنخلع تجاه مصدر الصوت..

أظنها كانت آيات من سورة المائدة إن لم أكن واهمًا..

واللَّه إنني أكاد ألمس السكينة تتطامن فوق كل ذرةٍ حولي..

شعرت أن الهواء ليس كالهواء..

وأن السماء ليست السماء..

هناك شيء ما أفلست قواميس الدنيا أن تمدني بعبارة أصف بها ذلك الإحساس.

رَبَّاه.. أي شيء يفعله القرآن يا إلهي في النفوس البشرية؟

ومما يعبُر في بحر هذه الذكرى أنني أتذكر-وأنا صغير- أن أحد قريباتي المُسنَّات كانت إذا عادت من صلاة التراويح اتجهت إلى التلفاز تشاهد نقل صلاة التراويح من المسجد الحرام.. ولا أحصي كم شهدتُ دمعاتها تتلامع في محاجرها حين تتسمر أمام تلك الصفوف المهيبة المطرِقة حول كعبة اللَّه المشرفة والقرآن تتجاوب به منارات الحرم وسواريه.

وفي الأيام التي تسبق دخول شهر رمضان يكثر فيها تبادل التهاني والدعوات (بلَّغَنا اللَّه وإياك رمضان، وفقنا اللَّه وإياك لصيام رمضان وقيامه، أحببت أن أبارك لك قدوم الشهر الكريم، الخ..)

حين رأيتُ بعض هذه التهاني دار في بالي أن أنظر كيف عرض اللَّه لنا «رمضان»؟

في أي إطار وضع اللَّه «شهر رمضان»؟

أو بمعنى آخر: ما هي هُوِيَّةُ رمضان في القرآن؟

حين أخذتُ أتأمل الآيات القرآنية التي تعرَّضَت لرمضان في القرآن، وجدته جاء في صيغتين، صيغة الشهر الكامل «رمضان»، وجاء في صيغة جزئية، أي بعض أيامه فقط، وهي «ليلة القدر».

في الصيغة التي جاء فيها بذكر الشهر الكامل «رمضان»، قال اللَّه عنه:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فعرَّفه اللَّه لنا بأنه الظرف الزماني للقرآن.

وفي الصيغة التي أشير فيها لرمضان بصورة جزئية، وهي أحد لياليه، جاءت في موضعين:

مرةً باسم «ليلة القدر» ومرةً باسم «الليلة المباركة».

فأما باسم ليلة القدر فيقول تعالى في مطلع سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١]، وأما باسم الليلة المباركة فيقول تعالى في مطلع سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: ٣].

وفي كلا الموضعين ذكر اللَّه هذه الليلة عبر علاقتها بالقرآن!

يا لربنا العجب. في المواضع التي ذكر اللَّه فيها رمضان، بصيغة الشهر الكامل وبصيغة الليالي الجزئية، تم تقديمه في إطار علاقته بالقرآن.

أي إشارة لخصوصية القرآن في رمضان أكثر من ذلك؟!.

استعرِضْ كل شهور السَّنة الفاضلة.. شهور الحج.. الأشهر الحرم.. لن تجد كثافة في الإشارة للقرآن كما تجده في علاقة القرآن برمضان.

بل ثَمَّة أمر قد يكون أشد لفتًا للانتباه من ذلك، أنه ليس فقط إنزال القرآن اختار اللَّه له رمضان، بل حتى (مراجعة القرآن) مع النبي ﷺ اختار اللَّه لها رمضان!

فكان جبرائيل عليه السلام- وهو أعظم الملائكة لأنه اختص بنقل كلام اللَّه - يعقد مع النبي ﷺ مجالس مسائية في كل ليلة من رمضان لمراجعة القرآن، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «**كان جبريل يلقى النبي في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول اللَّه** ﷺ القرآن»[1].

لماذا اختار اللَّه تحديدًا هذا الشهر - أيضًا - لمراجعة القرآن؟ أليس في هذا إلماحًا إلى أن الساعات الرمضانية هي أشرف الأزمان وأليقها بالقرآن؟ هل هناك لفت للانتباه لخصوصية القرآن في رمضان أكثر من هذه الإشارات في اختيار توقيت نزول القرآن، واختيار توقيت مراجعته؟

والحقيقة أن هذه المُدَارسة إذا أخذ يتخيلها الإنسان تستحوذ عليه المهابة.. مَن يتصور؟!

---

(١) أخرجه: البخاري (٤٩٩٧).

مجلس ليلي رمضاني لمراجعة القرآن.

طرفاه: أعظم إنسان «محمد بن عبداللَّه» ﷺ، وأعظم ملَك «جبرائيل» عليه السلام.

وموضوع الدرس: أعظم الكلام «كلام ملك الملوك».

يا أللَّه. أيُّ هيبة تقبض على النفوس بمجرد تخيل ذلك؟!.

ولذلك فإن النبي ﷺ نفسه يتأثر كثيرًا بهذه المُدَارَسة القرآنية الرمضانية مع جبرائيل، وكان الصحابة يرون أثرها أمامهم على شخصية رسول اللَّه ﷺ حتى كان يقول ابن عباس رضي الله عنهما كما في البخاري: «**كان رسول اللَّه ﷺ أجود الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فلَرسول اللَّه ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسَلة**»(١).

انظر كيف كان جود رسول اللَّه ﷺ يزداد بمدارسته القرآن مع جبريل، إذا كان هذا رسول اللَّه ﷺ الذي نزل عليه القرآن ومع ذلك ينتفع بمدارسته، فكيف باللَّه عليكم ستكون حاجتنا نحن أصحاب القلوب التي أمرضتها الشهوات والشبهات..؟!

أيُّ حِرمان أوقع فيه بعض المُتَثَيْقِفَةِ أنفسَهم حين أوهموا أنفسهم أنهم يعرفون القرآن وقرؤوه ولا حاجة لهم إلى استمرار تلاوته وتدبره ومدارسته، فكل ما في القرآن سبق أن اطلعوا عليه؟!

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٢٢٠).

أشهَرُ فعالية اجتماعية في شهر رمضان هي طبعًا «صلاة التراويح».

هل سألتَ نفسكَ يومًا ما هي الحكمة من صلاة التروايح؟

دعني أكون شفافًا معك، فالحقيقة أنه لم يسبق لي أصلًا أن تَساءلت هذا السؤال، ولكن كنت مرةً أطالع فتاوى مُحَقِّق العلوم (أبو العباس)[١] ابن تيمية، فرأيته يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**بل من أجلِّ مقصود التراويح قراءة القرآن فيها، ليسمع المسلمون كلام اللَّه**»[٢].

سبحان مَن فتح على ذلك العقل الحَرَّاني[٣] في فَهْم أسرار الشريعة.

وإذا تأمل المرء النسبة بين رمضان الذي هو وقت الصوم ووقت نزول القرآن أدرك شيئًا من النسبة بين يوم الاثنين واستحباب صيام النفل فيه، وهو ما أشار له النبي ﷺ كما في «صحيح مسلم»: سئل رسول اللَّه ﷺ عن صوم يوم الاثنين قال: «**ذاك يوم وُلدتُ فيه، ويوم بُعثتُ**»، أو «**أُنزلَ علي فيه**»[٤].

فلاحظ باللَّه عليك هذا الخيط الرفيع بين كون شهر رمضان-

---

(١) كذا بالرفع، على الحكاية.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٢٢).

(٣) يعني: عقل شيخ الإسلام، ابن تيمية، الحرَّاني. نسبة لـ «حرَّان» وهي مدينة قديمة تقع شمالي أرض الجزيرة، بالقرب من منابع نهر «البليخ» أحد روافد نهر الفرات، وكانت من ديار العراق، ولكنها تعتبر الأن ضمن حدود تركيا.

(٤) أخرجه: مسلم (٢٨٠٤).

الذي يجب صومه- هو: شهر نزول القرآن، ويوم الاثنين الذي يستحب صومه هو: يوم نزول القرآن.

هل مِن المعقول أن تكون هذه التوقيتات الزمنية لا تحمل دلالات شرعية ورسائل تضمينية؟

بل؛ ومن الموافقات التاريخية العجيبة أن أَشهَر جهاد للسلف في القرآن كان فتنة الإمام أحمد المعروفة في مسألة القرآن، وهذه الحادثة العقدية القرآنية وقعت في رمضان كما ذكر المؤرخون! قال الذهبي: «**وفي رمضان كانت محنة الإمام أحمد في القرآن، وضرب بالسياط حتى زال عقله**»(١).

فسبحان من أنزل القرآن في رمضان، وابتلى أئمة السلف بالجهاد للقرآن في رمضان! وهذا مجرد توافق تاريخي لكن فيه شيء لطيف مما تستطرفه النفوس.

وإذا حاول المرء أن يتأمل في سر العلاقة بين رمضان والقرآن، أو أزمان الصيام والقرآن، فإنه يمكن أن تكون العلاقة أن الصيام يهذب النفس البشرية فتتهيأ لاستقبال القرآن، ففي أيام الصيام تكون النفس هادئة ساكنة بسبب ترك فضول الطعام.

وهذا يعني أن من أعظم ما يعين على تدبر القرآن وفهمه التقلل من الفضول.

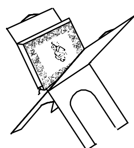
---

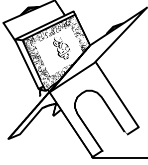
(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٩٢). و«زال عقله» يعني: أغشي عليه من التعب.

مثل: فضول الطعام، وفضول الخلطة مع الناس، وفضول النظر، وفضول السماع، وفضول تصفح (الإنترنت).

فكلما زالت حواجز الفضول تهاوت الحجب بين القلب والقرآن.

ولذلك كان رمضان الذي يتقلص فيه فضول الطعام والشراب والنكاح بالصيام، ويتقلص فيه فضول الخلطة والكلام بالاعتكاف؛ هو شهر القرآن.





١٠- الحبل الناظم في كتاب الله

هذه ليست ورقة بحثية، ولا مقالة مُنَظَّمة، ولا حتى خاطرة أدبية، كلا، ليست شيئًا من ذلك كله، وإنما هي:

هَمٌّ نَفسِيٌّ شَخصِيٌّ.

قررتُ أن أبوح به لأحبائي وإخواني، فهذه التي بين يديك هي أشبه بورقة «اعتراف» تُطوَى في سجلات الحَزَانى.

هذا الإحباط النفسي الذي يجرفني ليس وليد هذه الأيام، وإنما استولى عليَّ منذ سنوات، لكن نفوذه مازال يتعاظم في داخلي.

صحيح أنني أحيانًا كثيرة أنسى في اكتظاظ مهام الحياة اليومية هذه القضية، لكن كُلما خَيَّم الليل، وحانت ساعة الإخلاد إلى الفِراش، ووضعت رأسي على الوسادة، وأخذت أسترجع شريط اليوم ينبعث لهيب الألم من جديد.. ويضطرم جمر الإحباط حيًّا جَذَعًا.

ثَمَّة قضية كُبرَى وأولوية قُصوَى يجبُ أن أقومَ بها ومع ذلك لازالت ساعات يومي تتصرم دون تنفيذ هذه المهمة.. لماذا تذهب السنون تلو السنين ولازلت أفشل في التنفيذ؟ لماذا تكون المهمة أمام عيني في غاية الوضوح ومع ذلك أُفلِسُ في القيام بها؟

ويزداد الألم حين أتأمل في كثير من الناس من حولي فلا أرى فيهم إلَّا بُعدًا عن هذه القضية، إلَّا مَن رَحِم اللَّه.

مجالس اجتماعية أحضرها تذهب كلها بعيدًا عن «الأولوية القصوى».

وأتصفح منتديات (إنترنتية) وصفحات تواصل اجتماعي (فيسبوك و تويتر) تمتلئ بآلاف التعليقات يوميًّا.

وكثيرٌ منهم منهمِك في أمور بعيدة عن «الأولوية القصوى» إلا من رحم اللَّه.

وأطالع كُتبًا فكرية تقذف بها دور النشر، وتفرشها أمامَك معارضُ الكتب، وغالبها معصوب العينين عن «الأولوية القصوى».

فإذا أعدتُ كل مساء استحضار واقعي اليومي، وواقع كثير من الناس من حولي؛ تنفست الحسرات وأخذت أتجرع مرارتها.

وأتساءل: لِم؟ لِم هذا كله؟ متى تنتهي هذه المأساة؟

دعني أُلَخِّصُ لك كل الحكاية.

في كل مرةٍ أتأمل فيها القرآن أشعر أنني لازلت بعيدًا عن جوهر مُرَادِ اللَّه.

مركز القرآن الذي تدور حوله قضاياه لازلت أشعر بالمسافة الكبيرة بيني وبينه.

يذكر اللَّه في القرآن أمورًا كثيرة.

يذكر تعالى ذاته المقدسة بأوصاف الجلال الإلهية، ويذكر اللَّه في القرآن مشاهد القيامة مِن جَنَّة، ونار، ومَحْشَر، ونحوها، ويذكر أخبار الأنبياء وأخبار الطغاة وأخبار الصالحين، وأخبار الأمم- ولا سيما بني إسرائيل- وتصرفاتهم، ويذكر تشريعات عملية في العبادات والمعاملات. . . ، الخ.

وفي كل هذه القضايا ثَمَّة حَبْلٌ نَاظِم يربط كل هذه القضايا. . تتعدد الموضوعات في القرآن لكن هذا الحبل الناظم هو هو. . هذه القضية التي يدور حولها القرآن ويربط كل شيء بها هي «عمارة النفوس باللَّه».

كنت أتأمل - مثلًا- في أوائل المصحف، في سورة البقرة، كيف حكى اللَّه تعجُّب الملائكة ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾ [البقرة: ٣٠] ثُم يُربي اللَّه فيهم تعظيم اللَّه ورد العِلم إليه ﴿**قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠].

وكنتُ أتأمل بعد ذلك في سورة البقرة نفسها كيف يُعدِّد اللَّه نِعَمَه على بني إسرائيل في ست آيات، فيها: أنَّه فَضَّلهم على العالمين، وأنه نَجَّاهم من آل فرعون، وأنه فرَق بهم البحر فأغرق آل فرعون، وأنه عفى عنهم بعد اتخاذهم العجل، ثم بعد هذا التعديد العجيب لقائمة النِّعم، يختم بوظيفة ذلك كله ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [البقرة: ٥٢].

كل هذا السياق يُراد به «عمارة النفوس باللَّه» بأن تلهج الألسنة

والقلوب بذكره وشكره تعالى.

بل يذكر اللَّه تعالى في البقرة - وأعاده في مواضع أخرى أيضًا - كيف اقتلع تعالى جبلًا من الجبال ورفعه حتى صار فوق رؤوس بني إسرائيل، لماذا؟

ليربي فيهم شدة التَّدين والتعلق باللَّه، يقول تعالى في البقرة: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]. وقال في الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١].

كل هذا لتعمر النفوس بالتشبث بكلام اللَّه تعالى ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وكنت أتأمل كيف يصف القرآن حالة القلوب التي غارت(١) ينابيع الإيمان فيها، وأَمْحَلَتْ من التعلق باللَّه، حتى قارنها اللَّه بأكثر الجمادات يبوسة في موازنة لا تُخفي الأسى والرثاء.. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] ثم يُكمِل في تلك المقارنة المحرجة ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤] حتى الحجارة تلين وتخضع وتتفجر وتتشقق وتهبِط.. وما المراد من هذا المثل؟

---

(١) «غارت ينابيع الإيمان» يعني: ذهبت فيها فلا يبقى له أثر تطلبه به، ومنه قول الله تعالى: «أو يُصْبِحَ ماؤها غَورًا». انظر: «زاد المسير»(٤/ ٢٢٥).

هو: «عمارة النفوس باللَّه»:

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وكنت أتأمل كيف ابتلى اللَّه العباد بأمور توافق هواهم، وبأمور أخرى تعارضها، فآمن بعض الناس بما يوافق هواه وترك غيره، فلم يقل القرآن: إن اللَّه يشكر لهم ما آمنوا به ويتغاضى عما تركوا.. لا.. اللَّه يريد أن تعمر النفوس باللَّه فتَنقَاد وتخضع وتنصاع للَّه في كل شيء.. يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] ثم يقول بعدها بآيات معدودة: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧].

لماذا شَنَّع عليهم ربُّنا جل وعلا؟

لأن المراد شيء آخر.

شيء آخر يختلف كثيرًا عما يتصور كثير مِمَّن تضرَّرَت عقولهم بالثقافة الغربية المادية.

المراد: عمارة النفوس بتعظيم اللَّه والاستسلام المُطلَق له.

وكنتُ أتأمل كيف يذكر اللَّه النَّسخ في القرآن، وهو مسألة مشتركة بين أصول الفقه وعلوم القرآن، ثم يختم ذلك ببيان دلالة هذه الظاهرة التشريعية، وهي عمارة النفوس بتعظيم القدرة الإلهية: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: ١٠٦].

يا سبحان اللَّه. مسألة أصولية بحتة وتربط فيها القلوب بتعظيم

اللَّه، وقدرة اللَّه.

وكنت أتأمل كيف ذكر اللَّه مسألة من مسائل شروط الصلاة وهي (استقبال القبلة)، ثم تغييرها من بيت المقدس إلى الكعبة، وبرغم كونها مسألة فقهية بحتة، إلّا أن القرآن يُنَبِّهنا أن وظيفة هذه الحادثة التاريخية كلها هي «اختبار» النفوس في مدى تعظيمها واستسلامها للَّه؟ هذا جوهر القضية! ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وآيات القصاص تُختَم بـ«تقوى اللَّه» كما يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٩].

وآيات الصيام تلحق أيضًا بالتقوى في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وآيات الوصية تختم كذلك بالتقوى في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

ولما ذكر اللَّه مناسك الحج وأعمالها وشعائرها.. ووصل لِلَحظة اختتام هذه المناسك وانقضائها، أعاد الأمر مُجَدَّدًا لربط النفوس باللَّه وإحياء حضور اللَّه في القلوب ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

واعجباه!!

تنقضي المناسك وما يعتري المرء فيها من النصب، لتربط النفوس مجددًا باللَّه.. برغم أن «الحج» أصلًا مبناه على ذكر اللَّه بالتلبية والتكبير ونحوها، فالقلب في القرآن من اللَّه.. وإلى اللَّه.. سبحانه وتعالى.

وأخذت أتأمل لمَّا ذكر اللَّه تعالى حكم (الإيلاء) في القرآن، وذكر اللَّه للرجال خيارين: إما أن يتربصوا أربعة أشهر، أو أن يعزموا الطلاق، وأدركني العجب كيف يُختَم كلُّ خيار فقهي بأوصاف العظمة الإلهية، يقول تعالى في آيتين متتابعتين: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

واللَّهِ شيء عجيب أن تربط النفوس باللَّه بمثل هذه الكثافة في تفاصيل الأحكام الفقهية!

وكنت أتأمل كيف ذكر اللَّه حالة «الخوف» من الأعداء ونحوها، فلم يُسقِط الصلاة، بل أمر اللَّه بها حتى في تلك الأحوال الصعبة ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٨-٢٣٩] حسنًا هذا في حال الخوف فماذا سيكون في حال الأمن؟

تكمل الآية: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

رجعتُ مرةً أخرى إلى بداية الآية وأخذت أتأمل المحصلة، وإذا بها في حال الأمن والخوف يجب أن يكون القلب مُعلَّقًا باللَّه.

باللَّه عليك، أَعِدْ قراءة الآية متصلة:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٩].

القرآن يريد النفس البشرية مشدودة الارتباط باللَّه جل وعلا في جميع الأحوال.

يُريدُ من المسلم أن يكون اللَّه حاضرًا في كل سَكنَة وحركة.

وكنتُ أتأمل كيف يذكر اللَّه النصر العسكري ليربط النفوس باللَّه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وحتى حين ذكر اللَّه المعاصي والخطايا إذ يُقارِفها ابن آدم فإن القرآن يفتح باب ذكر اللَّه أيضًا ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

وذكَر اللَّه تبدلات موازين القوى عبر التاريخ، وربط الأمر -أيضًا- بأن المراد اختبار عمق الإيمان والارتباط باللَّه:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقص اللَّه في القرآن قصة قومٍ قاتلوا مع نبيهم.. وحكى القرآن

ثباتهم.. ومِن ألطف ما في ذلك السياق أنه أخبرنا بمقالتهم التي قالوها في ثنايا معركتهم.. فإذا بها كلها مناجاة وتعلق بالله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧].

شيء مدهش-واللهِ- حال ذلك القوم الذين عرضهم الله في سياق الثناء!

في قلب المعركة.. وتراهم يستغفرون الله من خطاياهم، ويبتهلون إليه، ويُظهِرون الافتقار والتقصير وأنهم مسرفون.

يا لتلك القلوب الموصولة بالله.

ولما ذكر الله الجهاد شرح وظيفته وأنها اختبار ما في النفوس من تعلق بالله وإيمان به ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾ [آل عمران: ١٦٦].

ولما ذكر الله حب النفس البشرية للنصر على الأعداء لفت الانتباه إلى المصدر الرئيسي للنصر.

تأمل بالله عليك؛ كيف يضُخُّ القرآن في النفوس التعلق المستمر بالله ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي

يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ويقول تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

وكنت أنظر كيف يُصوِّر القرآن أوضاع الجلوس والقيام والاسترخاء.. وكيف تكون النفس في كل هذه الأحوال لاهِجَة بذكر اللَّه ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١].

يذكر اللَّه وهو واقف..

يذكر اللَّه وهو جالس..

يذكر اللَّه وهو مضطجع..

أيُّ تَعَلُّق باللَّه!.. وأيُّ نفوس معمورة بربها أكثر من هذه الصورة المشرقة!

سألتك باللَّه وأنت تقرأ هذه الآية ألَا تتذكر بعض العُبَّاد المخبتين من كبار السن الذين لا تكف ألسنتهم عن تسبيح وتحميد وتكبير.

هل ترى اللَّه حكى لنا هذه الصورة عبثًا؟! أم أن اللَّه تعالى يريد منا أن نكون هكذا.

نفوسًا مملوءة بربها ومولاها، لا تغفل عن استحضار عظمته وتألُّهِهِ لحظة واحدة.

وحتى في المشاعر بين الزوجين إذا سارت الأمور في غير مجاريها فإن القرآن يُحرِّك في النفوس استحضار الغيبيات والأبعاد الإيمانية حيث يقول تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا

﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فإن بلغت أمور الزوجين إلى الشقاق الزوجي شُرِع التحكيم بينهما.. وحتى في هذا التحكيم الزوجي فإن القرآن يلفت انتباه المنخرطين في هذه العملية إلى أن مسارات التحكيم مرتبطة بما قام في القلوب من العلاقة باللَّه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥].

ولما ذكر اللَّه البلد الذي لا يستطيع المؤمن فيها إظهار شعائره وأمر بالهجرة إلى بلد آخر؛ لم يجعل الأمر مجرد هجرة من مكان جغرافي إلى آخر، بل جعل القضية «هجرة إلى اللَّه» ذاته، كما يقول تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. فالأمر في صيغته الحسية مجرد هجرة من بلد إلى بلد، لكنه في ميزان القرآن «هجرة إلى اللَّه ورسوله».

ومن أعجَب مواضِع القرآن في ربط النفوس باللَّه وعمارتها بربها، ولا أظن أن ثمة دلالة أكثر من ذلك على هذا الأمر: (صلاة الخوف حال الحرب)، هذه الشعيرة تُسكَب عندها عَبَرَات المُتَدبِّرين.

وقد تكفل القرآن ذاته بشرح صفتها، وجاءت في السُّنة على سبعة أوجه معروفة تفاصيلها في كتب الفقه.. باللَّه عليك تخيل المسلم وقد لبس لأْمَةَ الحرب، وصار على خط المواجهة،

والعدو يتربص، والنفوس مضطربة قَلِقَة، والأزيز يمخُر الأجواء، والدم تحت الأرجل.. ومع ذلك لم يقل اللَّه: دعوا الصلاة حتى تنتهوا، بل لم يقل: دعوا «صلاة الجماعة»! وإنما شرح لهم كيف يصلوا جماعة في هذه اللحظات العصيبة ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

هل تعرف في الدنيا كلها شاهدًا على حب وتعظيم اللَّه جل وعلا للارتباط باللَّه واستمرار مناجاته أكثر من ذلك؟

بل هل يوجد رجل فيه شيء من الورع وخوف اللَّه يُهمِل صلاة الجماعة وهو في حال الأمن والرفاهية وعصر وسائل الراحة؛ وهو يرى ربه تعالى يطلب من المقاتِلين صلاة الجماعة ويشرح لهم تفاصيل صفتها بدقة، وهم تحت احتمالات القصف والإغارة؟!

هل تستيقظ نفوس افترشت سجاداتها في غرفها ومكاتبها تصلي «آحادًا» لتتأمل كيف يطلب اللَّه صلاة «الجماعة» بين السيوف والسهام والدروع والخنادق..؟!

أترى اللَّه يأمر المُقَاتِل الخائِف المُخَاطِر بـ«صلاة الجماعة»، ويشرح له صفتها في كتابه، ويعذر المضطجعين تحت الفضائيات، والمتربعين فوق مكاتب الشركات؟! هل تأتي شريعة اللَّه الموافقة للعقول بمثل ذلك؟!

ومن اللطيف أن الآية التي أعقبَت الآية السابقة تكلَّمَت عن حال

إتمام الصلاة. . حسنًا. . نحن عرفنا الآن من الآية السابقة صفة الصلاة لحظة احتدام الصفين، فما هو التوجيه الذي سيقدمه القرآن بعد الانقضاء من الصلاة؟

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

يا سبحان ربي!! الآن انتهى المُقَاتِل من صلاة الجماعة، فيرشده القرآن لاستمرار ذكر اللَّه.

هل انتهى الأمر هاهنا؟

لا؛ لم ينته الأمر بعد، فقد واصلت الآية الحديث عن انتهاء حالة الخوف، وبدء حالة الاطمئنان، ويتصل الكلام مرةً أخرى لربط النفوس باللَّه ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣].

صارت القضية كلها للَّه.

باللَّه عليك، أعد قراءة الآيتين متواصلتين ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٢-١٠٣].

ولما ذكر اللَّه الصلاة في سورة «طه» أشار إلى غاية تغيب عن بال كثير من المصلين فضلًا عمن دونهم، ربما يتحدث الواحد منا عن عظمة الصلاة في الإسلام، وأنها أعظم ركن بعد الشهادتين، وأنها الخط الفاصل بين الكفر والإيمان، ونحو هذا من معاني مركزية الصلاة، ولكن لماذا شرع اللَّه الصلاة وأحبها وعظمها سبحانه؟

إنها بوابة استحضار اللَّه وتذكره، يقول اللَّه سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] هكذا بكل وضوح.. يقيم المسلمون الصلاة ليتذكرون اللَّه جل وعلا.. يكبروه ويسبحوه ويناجوه.

بل وحتى حين ذكر اللَّه الجوارح المُعَلَّمَة في الصيد لم يذكر تعليمها مُغْفَلًا هكذا.. بل يربطه بالحقيقة العقدية الإيمانية ليستمر القلب موصولًا بعظمة اللَّه.. تأمل كيف ينبه المسلم على ذلك ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤].

حتى تعليم الجوارح والكلاب الصيدَ يجب أن يستحضر المؤمن أنها تعليم مِمَّا عَلَّم اللَّه.

ما أشد كثافة حضور العلاقة باللَّه في القرآن.

وأخذ القرآن مرةً يستثير ذكرياتٍ للصحابة، كاد الكفار فيها أن يفتكوا بهم، فينبش القرآن هذه الوقائع التاريخية ليرتفع بالقلوب إلى اللَّه الذي نجاهم، يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن

﴿يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١١﴾ [المائدة: ١١].

وقد ذكر أهل التفسير فيها عدة وقائع تندرج في ذلك، كمحاولة الأعرابي غَوْرَث بن الحارث أن يقتل رسول اللَّه ﷺ، كما في البخاري[١].. ومثل مؤامرة اليهود لقتل رسول اللَّه ﷺ وأصحابه فأوحى اللَّه إليه وانكشفت المؤامرة، ونحوها من الأحداث.

ليس المهم تعيين هذه الأحداث التي فشلت فيها مؤامرات الكفار ضد الرسول ﷺ والصحابة ﵃.

الأهم -واللَّه- حين يرى مُتَدبِّر القرآن كيف يفاجئ القرآن الصحابة بذكر تلك القصص ليُحيي علاقة القلب باللَّه.. فينبههم أن اللَّه سبحانه هو الذي كف أيدي الكفار عنكم، وأنه يجب أن تتوكل القلوب عليه سبحانه.

آيات تنبش في أذهان الصحابة ذكريات أحداثٍ وخطوب سَلِموا فيها، لا تذكرها هذه الآيات إلا لتَصعَد بالقلوب إلى الخالق المتفضِّل سبحانه.. كأن هذه الآيات تقول: انتبهوا! إن سلامتكم في تلك الأحداث ليست أمرًا عابرًا، بل هو فضل من اللَّه ورحمة، فاذكروا هذا ولا تنسوه، وليكن منكم على بال، ولتعشه القلوب وتلهج بشكر اللَّه الألسنة والجوارح.. انظر كيف تكون وظيفة (السِّير والمغازي) في كتاب اللَّه، وقارنها بنمط تعاملنا معها.

---

(١) أخرجه: البخاري (٤١٣٧).

وتذكير القرآن للصحابة بغزواتهم في سورة الأنفال يشبه قول اللَّه في سورة إبراهيم عن موسى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [إبراهيم: ٥].

فقال موسى مستجيبًا -في الآية التي تليها-:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٦].

ولما ذكر اللَّه تعالى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ أمر قومه بدخول «الأرض المقدسة» والتي ذكر بعض أهل التفسير[1] أنها «الطور» وما حولها، فتخاذل قوم موسى واعتذروا بأن فيها قومًا جبارين لديهم إمكانيات لا نستطيع مقاومتها، وفي هذه اللحظة وقف رجلان من قوم موسى موقف الشجاع مستجيبَيْنِ لأمر موسى، ونبهوا قومهم أنهم بمجرد الدخول على الجبارين فسينهزمون بإذن اللَّه.

هذان الرجلان البطلان لم يذكرهما اللَّه في كتابه وينسب الفضل لهما، بل نبَّه تعالى أن موقفهما البطولي إنما له خلفيات أخرى.

باللَّه عليك، تتبع نمط القرآن في عرض ذلك، يقول اللَّه حاكيًا خطاب موسى: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ

(١) انظر: «تفسير الطبري (١٠/ ١٦٧)»، ويروى عن مجاهد.

وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢٣].

لعلك لاحظتَ الأمر، وكيف يلح القرآن على إبراز خلفيات العلاقة باللَّه، فهذان الرجلان لم يقفا هذا الموقف الصواب إلَّا لأنهما يخافان من اللَّه، وقد أنعم اللَّه عليهما بمقامات الإيمان والديانة.. وحتى وصيتهما لقومهما كانت ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٢٣]، والتوكل من أدق مقامات تعلق القلب باللَّه، بل إن التوكل هو لحظة التعلق باللَّه فعلًا.

هذه الوقائع والحوارات بين موسى وقومه لا يمكن أن تخرج منها بمبدأ جوهري إلَّا مركزية التعلق باللَّه.

فموسى يذكرهم باللَّه لكي يدخلوا الأرض المقدسة، وبطلَا المشهد إنما وقفا هذا الموقف لأن اللَّه أنعم عليهما بمقامات الإيمان، ونصيحتهما الختامية هي (التوكل على اللَّه).. القصة كلها إيمان في إيمان.

ثم يُحدِّثك القرآن عن ظاهرة المصائب والأضرار التي تصيب الإنسان في حياته الشخصية، وبالرغم من أن اللَّه شرع لنا اتخاذ الأسباب، كالأدوية للشفاء من المرض، والتماس الرزق لرفع الفقر، إلَّا أن القرآن يُكَثِّف دائرة الضوء على أمرٍ آخر أهم، وهو أن يرتبط الفؤاد باللَّه ﷻ وهو يصارع هذه البلاءات، تأمل كيف يصوغ

القرآن هذا المعنى، يقول اللَّه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

ويقول ربنا في موضع آخر مُشَابه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

لعلك لَمَحْتَ معنى آخر، وهو أن الآيتين كليهما لم تتحدثا فقط عن أن كاشف الضر هو اللَّه، بل المُدهِش أنهما أشارتا كذلك إلى أن من مسَّك بهذا الضر هو اللَّه سبحانه أيضًا!

فحين يَتعَمَّق المؤمن في أسرار هذه الآيات فيمتلئ قلبه باليقين بأن من مسَّه بالفقر أو المرض هو اللَّه، وأن من سيرفع هذا الضر، فيُغنِيه ويعافيه هو اللَّه أيضًا، فصار مبتدأ الأمر، ومنتهاه من اللَّه وإلى اللَّه، فماذا بقي في القلب لغير اللَّه ؟!

اللَّه وحده جل جلاله هو الذي أوقعه، واللَّه وحده جل جلاله هو الذي سيرفعه! هكذا يتبحر المؤمن في حقائق العلم باللَّه والإيمان به وعمارة النفوس بمهابته سبحانه.

ثم ينتقل القرآن إلى دائرة أوسع من دائرة (الفرد) وهمومه الشخصية، إلى دائرة (المجتمع) وقضايا الشأن العام وما تكابده من أزمات، ماذا يريد اللَّه -جل وعلا- بتقدير هذه الأزمات المجتمعية؟

قطعًا، هناك حكمة إلهية في تقدير هذه المصائب المجتمعية،

فما هي يا ترى؟

إنها ليست شيئًا آخر غير تلك الحقيقة الكبرى الناظمة للقرآن والتي رأيناها تسري في شرايين الشواهد والنماذج السابقة، بكل وضوح ومباشرة يكشف اللَّه سبحانه عن حكمته في تقدير هذه الأزمات المجتمعية فيقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

ويُحدِّد ربنا في موضع آخر مشابه ذات الخلفية:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٩٤].

وتضيف آيةٌ أخرى مقامًا إيمانيًّا بديعًا مشابهًا للتضرع وهو «الاستكانة للَّه» يقول اللَّه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦].

هذه التغيرات التي تطرأ على الفرد والمجتمع بشكل عام يريد بها اللَّه أن نعود إليه كما يقول اللَّه: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

هذا هو الدرس الأساسي في ظاهرة المصائب الجالبة للهموم الفردية والمجتمعية، كالفقر والمرض والأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية، يريد اللَّه جل وعلا أن تكون جسرًا إليه سبحانه، يريد اللَّه بها أن توقَظ قلوبنا فتستكين للَّه، وتتضرع له

سبحانه، وتتعلق به جل وعلا، قارن هذا بنمط تعاملنا مع هذه الظواهر يستبِن لك بعدنا عن الحقيقة الكبرى الناظمة للقرآن.

ومن التعابير الشمولية التي استعملها القرآن لتربية هذه الحقيقة الكبرى في النفوس قول اللَّه سبحانه في خواتيم سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فانظر كيف شملت هذه الآية أصول العبادات، والحياة، والممات، وجعلت كل ذلك للَّه سبحانه.. قد يعرف الكثير من الناس اليوم كيف يصلي للَّه، وكيف يحج للَّه.. لكن القليل من الناس يُدرِك كيف يحيا حياته للَّه، وكيف يموت للَّه؟! وهذه الآية العظيمة تزكي النفوس بهذا المقام العظيم الذي هو لُبُّ القرآن.

ويحدثنا مطلع سورة الأنفال عن إرهاصات معركة بدر، ثم تفاعلاتها وتطوراتها بين الاستيلاء على قافلة قريش أو المواجهة العسكرية، حتى يصل السياق إلى النصر العظيم الذي حققه المسلمون في قتالهم لجيش الكفار وسحقهم.

أتدري أين العجب في ذلك كله؟ أن القرآن بعد شرح هذه الأحداث المتلاحقة يُعَقِّب تعقيبًا مدهشًا في تربية التعلق باللَّه ونسبة الفضل له سبحانه، باللَّه عليك تأمل هذا التعقيب القرآني على غزوة بدر: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

يا للَّه العجب!.. فالصحابة المجاهدون هم الذين قاتلوا،

والنبي ﷺ هو الذي رمى التراب وقال: «**شَاهَتِ الوُجُوه**»(١)، ومع ذلك يقول القرآن: لا، لستم أنتم الذين قتلتموهم، ولا أنت يا رسول اللَّه الذي رميت! ولكنه اللَّه سبحانه هو الذي قتلهم، وهو الذي رمى، والمعنى أن اللَّه هو الذي أظفركم بهم، لكن من شدة نسبة الفضل إلى اللَّه نسب إليه الفعل ذاتُهُ!

فانظر كيف تُشرَع القلوب إلى السماء وتتخلص من حبال التثاقل إلى الأرض.

وإذا تأمل مُتَدبِّرُ القرآن هذه الآية ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، لوجد فيها إثباتًا ونفيًا، فأثبت لرسول اللَّه رميًا، ونفى عنه رميًا آخر، فالمُثبَت هو: الحذف والإلقاء.

والمَنفي هو: الإيصال والتبليغ.

كما حرَّره أبو العباس ابن تيمية، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر في الآية ثلاثة أوجه وناقشها، وهي في «الفتاوى»(٢) لمن أراد التوسع.

ويُشبِه هذا المعنى المذكور في سورة الأنفال آية أخرى في سورة التوبة يقول اللَّه فيها:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

فانظر كيف نسب السبب لأيدي الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ونسب الأثر

(١) جاء عند مسلم (١٧٧٧) في غزوة حنين. و«شاهَتْ» يعني: قَبُحَتْ.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٩).

للَّه ﷻ! فصحيح أنكم أنتم الذين تقاتلونهم لكن اللَّه هو الذي يعذبهم بذلك!

لا يتوقف مشهد تعليق القلوب باللَّه في المجتمع المسلم، بل إن القرآن يوجه قارئه إلى تربية التعلق باللَّه في نفوس «الأسرى». . إنهم الأسرى الذين هم مجموعة من الكفار المحارِبين الذين تَعذَّر عليهم إتمام مهمتهم الخبيثة! ومع ذلك يحثنا كتاب اللَّه على تفقيههم في معاني «أعمال القلوب» يقول اللَّه في سورة الأنفال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

يجب أن يدرك الأسرى أن الموضوع كله متعلقٌ بما في القلوب!

ولما ذكر اللَّه قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا وهم كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم، وهي مرويةٌ بطولها في صحيح البخاري[1]، شرحت الآيات حالة استغلاق الهَم والغَم الذي أصاب هؤلاء الثلاثة، ثم وصلت الآية إلى جوهرها وهو «الحالة الإيمانية» التي يحبها اللَّه سبحانه، وثمَّنها منهم، وجعلتها الآية ختام المشهد، يقول اللَّه سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨].

أرأيت؟! ما أبدع عرض الآية لهذا المقام الإيماني في سياق

---

(١) أخرجه: البخاري(٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

تفاعلات الهم والغم، فبعد أن ضاق عليهم الخارج «الأرض بما رحبت» وضاق الداخل «وضاقت عليهم أنفسهم» تصل الآية إلى ذروة الإيمان ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

ليس العجب فقط أنهم تعلقوا باللَّه.. بل العجب إشارة الآية إلى المبدأ والمنتهى، أعني إشارتها إلى أنه لا نجاة من اللَّه إلا إلى اللَّه! فاللَّه هاهنا هو المَخُوف، واللَّه نفسه هو الملاذ! هذه هي القلوب التي يحبها اللَّه.

ومما يدلك على أن اللَّه يريد من العبد أن يبقى قلبه متضرعًا مستغيثًا في حال الأزمة، وبعد تجاوزها.. وأنه ليس من الأدب أن تدعوَ اللَّه أثناء الأزمة ثم تغفل عن التعلق باللَّه بعد تحسن الأحوال، يصف اللَّه هذا المشهد بقوله في سورة يونس: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: ١٢].

تأمل كيف وصفت الآية الضجر الذي يصيب الإنسان أثناء المصيبة فيدعو اللَّه في كل أحواله قائمًا وقاعدًا ومستلقيًا، ثم إذا كشف اللَّه مصيبته غفل ونسي تلك اللحظات التي كان يناجي فيها ربه.. عزبت عن باله ذكرى تلك الابتهالات إلى اللَّه حال الكرب.

وهذا المشهد الأليم الذي ذكرته سورة يونس شرحته آيات

أخرى لتؤكد أهمية الموضوع، يقول تعالى في سورة الزمر: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

ويقول اللَّه في سورة فصلت: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: ٥١].

واللَّه إنني أشعر بالخجل وأنا أعلق على هذه الآيات.

ما أكثر ما يلح المرء على ربه إذا عرضَت له حاجة، فإذا تحققت حاجته وحصَّل غرضه طارت به الفرحة فأنسته التبتل بين يدي ربه شكرًا وحمدًا وثناءً.

أليس هذا هو المرور كأن لم يدْعُ اللَّه إلى ضر مسه؟!

أليس هذا هو نسيان ما كان يدعوا إليه من قبل؟!

أليس هذا هو الإعراض والنأي بعد ذلك «الدعاء العريض»؟!

يا رب عفوَك وسترك.

والمراد أنه إذا تأمل مُتَدبر القرآن كيف كرَّر اللَّه في تصويرات متعددة ذم من يدعو اللَّه في حال الضر، ويغفل في حال العافية؛ علم أن اللَّه يريد أن يكون القلب معلقًا باللَّه في كل حال.

سأسألك يا أخي الغالي قارئ هذه السطور سؤالًا تبوح به هذه الكلمات المكتوبة، ولكن اجعل جوابه في صدرك، اجعلها مناجاة الأحبة بيني وبينك.

سؤالي هو:

باللَّه عليك، ألم يمر بك لحظة ركبتَ فيها (الطائرة) مسافرًا إلى سياحة أو تجارة أو غيرها، وكانت الأمور على ما يرام، ثم -وأنت في جوف السماء- ارتعدت الطائرة لظروف جوية، أو رأيتَ طاقم الطائرة يلهثون كأنما يخفون أمرًا خطرًا، فكيف كانت مشاعرك في تلك الحالة؟

ألم تدعُ اللَّه وَجِلًا بالسلامة، ألم يركض أمام عينيك سريعًا شريط الخطايا والمعاصي؟

ألم يستحوذ عليك إحساس بأنك إنْ سَلِمْتَ ستتوب بعد أن رأيتَ الموت؟

مرَّت بك هذه اللحظة؟

إذن، اقرأ كيف يُصوِّر اللَّه ذات المشهد لكن على وسيلة مواصلات أخرى مشابهة، وتأمل كيف يُعاتِبنا على ذلك، يقول اللَّه في سورة يونس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

يا لبلاغة القرآن.

واللَّه لا زال هذا المشهد يتكرر منذ أنزل اللَّه هذه الآيات إلى يوم الناس هذا!

وهذا المشهد المذكور في سورة يونس شرحته آية أخرى مشابهة في سورة الإسراء، وكشفت آية الإسراء جهل العقل البشري، وكيف يغفل عن أخطار أخرى حتى لو سَلِم في رحلته التي نجا فيها، يقول اللَّه مرةً أخرى عن وسائل النقل:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٧-٦٩].

تأمل كيف تشير الآية إلى جهل الإنسان حيث يظن أنه إذا وصل البر أَمِنَ، ولذلك يغفل! والقرآن ينبهه أنه حتى لو نزل على الأرض فقد يكون تحت خطر عقوبة أشد كالخسف بالأرض كما حصل لـ«قارون»، أو الرمي بالحصباء كما حصل لـ «قرية سَدُوم».

ثم يُنَبِّه القرآن تنبيهًا أعجب وهو أنه: يا مَن نَجَوتَ هذه المرة مِن الخطر ووصلتَ البرَّ، قد تعود مرةً أخرى إلى وسيلة النقل ذاتها فتهلك هلاكًا أشد حين تقصم الريح مراكبك.

وتشير آية أخرى إلى تفاوت الناس بعد زوال لحظة الخطر على وسيلة النقل: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا

نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [لقمان: ٣٢].

هذه الصورة التي يكررها القرآن عن السفر بالسفن و(اليُخوت) انقلها بحذافيرها إلى وسيلة نقل مشابهة، كالطائرة، أو القطارات، أو السيارات، وتأمَّل.. كيف يكون الإنسان فيها قَلِقًا، وخصوصًا إذا مر بظروف طبيعية، كرياح تثير الاضطراب، ثم إذا نزل على الأرض نسي استكانته وتضرعه وعزيمته على الاستقامة.

تذكر هذه الصورة التي نَمُر بها وأعد قراءة آية «يونس» وآية «الإسراء» السابقتين - تنكشف لك من معاني الإيمان والتعلق باللَّه ما لم يخطر ببالك.

والمقصود أن ينظر متدبر القرآن كيف يريد اللَّه قلوبًا تستديم التعلق به في حال الخطر والسلامة.

إنه الحبل الناظم والحقيقة الكبرى في القرآن، وهو استمرار حركة القلب بالإيمان باللَّه والتعلق به سبحانه.

ربما لو جلستَ مجلسًا وسألتَ مَن فيه ما هو تعريف «الصحبة الصالحة»؟

لربما طافت بك التعريفات في صفات دنيوية، وخصوصًا بعد غلبة المنظور الغربي لمفهوم (تطوير الذات) فصارت تسري في مفاصل هذه الكتب المعايير المادية في النظرة للحياة والنجاح..

لكن مُتَدَبِّر القرآن يَجِد في سورة الكهف تعريفًا مدهشًا للصحبة الصالحة.

يقول اللَّه -تبارك وتعالى- لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]

سألتُك- بالذي خلقك- هل تجد اليوم في خطاباتنا الفكرية والنهضوية مَن يعرِّف الشخصية المتميزة بهذا التعريف؟!

انظر كيف تحدد سورة الكهف «خاصية» الشخص المتميز.

إنه الذي «يدعو ربه بالغداة والعشي».

واخجَلاه من زمانٍ صِرنا نستحي فيه من حقائق القرآن!

ولما كلَّف اللَّه موسى عليه السلام بالرسالة، طلب موسى من اللَّه أن يجعل له وزيرًا يُعِينه على مهمة الرسالة وهو أخوه هارون، لكن ما هو المقصود الأبعد من هذا التعاون والتعاضد بين الأخوين؟

شاهِد كيف يشرح موسى وظيفة الاستعانة بأخيه هارون في سورة طه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٤].

أظنك لاحظتَ هذا الحضور العجيب لـ«ذكر اللَّه» في بنية الرسالة، موسى يقول لربه: اجعل معي هارون كي نسبحك ونذكرك كثيرًا! من أجل التسبيح والذكر!

هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟

لا؛ بل إن اللَّه تعالى يُرسِل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ويوصيهما مرةً أخرى بلهَج اللسان بذكر اللَّه، فيقول اللَّه في نفس السورة -سورة طه- بعد الموضع السابق بآيات معدودة: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾﴾ [طه: ٤٢].

موسى يريد تَوزير أخيه ليتعاونا على تسبيح اللَّه وذكره، وربهما يرسلهما ويقول: «لا تَنِيَا» أي: لا تَفتُرا، ولا تضعفا، ولا تكسلا عن ذكري.

لاحظ المهمة الجسيمة التي سيتحملانها وهي مواجهة أعتى نظام مُستَبِد في التاريخ بما يستفز كبرياءه، ومع ذلك يقول اللَّه لهما: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾.

لو قدَّم اليوم بعض الدعاة نصيحة للثوار على الحكومات العربية الفاسدة بأن يكثروا من (ذكر اللَّه) لعُدَّ كثير من المستغربين ذلك دروشة وسذاجة! برغم أن موسى يجعل ذكر اللَّه مظلة لمهمته الكبرى، واللَّه جل جلاله يؤكد عليهما بأن لا يفترا عن الذكر.

فما أكثر الشواهد المعاصرة على غُربة مفاهيم القرآن، وبُعد كثير من شباب المسلمين عنها إلَّا مَن وفق اللَّه!

ثم يتحدث القرآن في سورة «الحج» عن طريقة تلقي المؤمن لآيات الوحي، وأنه ليس المطلوب فقط تنفيذ أحكام القرآن، بل لا بُد أن يقوم في القلب معنى آخر يظهر به «ذل العبودية» للَّه سبحانه وتعالى، وهو طأطأة القلب ورقته فور تلقيه القرآن، يقول اللَّه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ﴾ [الحج: ٥٤].

وقد ذكر بعض أهل التفسير أن معنى الإخبات هاهنا «أي: ترقَ للقرآن قلوبهم»(١).

ثم ينتقل بنا المسار إلى سورة «المؤمنون»، وفيها مشهد بديع لعمارة النفوس بالله، ذلك أن كثيرًا من الناس يتصور أن المؤمن يجب أن يخاف من الله حال (المعصية)، أما حال (الطاعة) فتذهل كثيرٌ من العقول عن مقام الوَجَل من الله.

لكن ميزان القرآن يختلف، يختلف جذريًّا، إنه يريد شُعَب الإيمان مُستَوفِزة متلهِفة في كافة الأحوال، مشدودةً إلى خالقها.

تأمل كيف يصوِّر القرآن المؤمن وهو في لحظة العمل الصالح: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠].

يمد يده بالصدقة وقلبه يرتجف من الله!.

بالله هل رأيت إقبالًا على الله وذهولًا عما سواه أشد من ذلك؟!

فاذا كان هذا هو المطلوب القرآني حال (الطاعة) فكيف يكون حال (الخطيئة)؟!

وفي سورة «النور» لمَّا ذكر الله الأنشطة التجارية لم يتحدث عن أهميتها، أو فنونها، بل التحذير من أن تشغل القلب عن الانكباب

(١) ينسب هذا للإمام الطبراني فيما نُسِب إليه من التفسير.

على اللَّه ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] فإذا كان هذا حالهم أثناء التجارة المنهِكة فكيف يكون أثناء الفراغ؟!

ومن المعاني القرآنية التي نَبَّهَت إلى تعلق القلب باللَّه وانصرافه عما سواه مفهوم «إقامة الوجه للدين» «وإسلام الوجه للَّه».

وهي تعابير لها دلالاتها القلبية العميقة.

تأمل هذه الطائفة من الآيات: يقول اللَّه: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس: ١٠٥]، وقال اللَّه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]، ويقول سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤٣]، ويقول أيضًا: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقد قرأتُ لعددٍ من أهل العلم عن أكثر أمرٍ ردَّدَه القرآن بعد التوحيد ما هو؟

ورأيتهم ذكروا أمورًا لكني اختبرتها فوجدتها غير دقيقة، وأما الذي رأيته شخصيًّا فلا أعرف مطلوبًا عمليًّا ردَّدَه القرآن بعد التوحيد مثل موضوع «ذكر اللَّه» سواءً كلام القرآن عن «جنس الذِّكر» كحديث القرآن عن الذاكرين اللَّه كثيرًا والذاكرات، والذكر قائمًا وقاعدًا ومضجعًا، وذكر اللَّه آناء الليل والنهار، وتحريم أمورٍ لأنها تصد عن ذكر اللَّه، والتحذير من قسوة القلوب من ذكر اللَّه، وخشوع القلب لذكر اللَّه، ونحو هذه المعاني التي تتحدث عن جنس الذكر.

أو كلام القرآن عن «آحاد الذكر» مثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ونحوها، كتسبيح الكائنات، واستفتاح السور بالحمد، ونحوها.

هذا هو أكثر مطلوب عملي رأيته في كتاب اللَّه، أما المطلوب الخبري بعد التوحيد فربما كان «المَعاد» واللَّه أعلم.

هذه الظاهرة في القرآن -أعني ظاهرة كثرة الحديث عن ذكر اللَّه- لا أظنه سيخالف فيها مَن تأملها بإذن اللَّه، ويستطيع متدبر للقرآن ملاحظتها بسهولة، وإنما الشأن في تفسير هذا الموضوع، أو على الأقل محاولة إدراك العلاقة بين «ذكر اللَّه» و «القلب البشري». . فما العلاقة بين الذكر والقلب يا ترى؟

هناك آيتان عظيمتان في كتاب اللَّه أشارتا إلى سر هذه العلاقة، يقول اللَّه -في سورة الأنفال-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

ويقول اللَّه-في سورة الحج-: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

لا أظنه فاتك هذا السر الذي نبهتْ إليه الآيتان، انظر كيف يربط القرآن بين الذكر وحركة القلب:

﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

باللَّه عليك ألا تدهشك هذه العلاقة؟

على أية حال. . تلاحظ أننا ابتدأنا هذه الخواطر بمشاهد من

السبع الطوال أول المصحف.. ثم انتقلنا إلى مشاهد أخرى من أواسط المصحف.. دعنا نغادر الآن إلى مشاهد مماثلة من خواتيم القرآن وقصار السور.

من النماذج الملفتة في أواخر القرآن سورة تحدث اللَّه فيها عن مشاعر المؤمن بعد أن يلقي عنه عناء الجهاد فيتحقق النصر.. لقد كان القرآن طوال حياة النبي ﷺ يُعَلِّق القلوب باللَّه لتنتصر، فماذا بعد النصر؟ يقول اللَّه:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣].

ومن أساليب القرآن العجيبة في وصل النفوس بخالقها أن القرآن لا يكتفي بذكر التعلق باللَّه، بل ينوع أسماءه سبحانه في الموضع الواحد لتتعدد موارد التعلق!

انظر كيف يتقلب الفؤاد في مدارج العبودية وهو يسمع ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١-٣].

يأمرنا اللَّه أن نلجأ ونستعيذ به بموجب ربوبية اللَّه للناس ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١]، فإذا تَشَبَّع القلب بذلك، انفتح عليه مشهد مُلْك اللَّه العظيم للناس ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس: ٢]، فيزداد تمسك القلب واستعاذته بمقتضى ملكية اللَّه، ثم يكشف للقلب موردًا آخر، وهو ألوهية اللَّه للناس ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ٣]، فلا تزال حبال الاستعاذة تشد قلب مُتَدبِّر القرآن إلى السماء،

بمقتضيات وموارد وموجبات تتكشف له من معاني الأسماء الإلهية العظيمة.

وهكذا يريد القرآن -من مفتتَحه إلى مختتَمه- أن تكون قلوب العباد.

وهذه مجرد نماذج ومنتخَبَات التقطتها من أجزاء القرآن، وتركت أضعاف أضعافها لئلا يطول الحديث وينتشر الموضوع، ويستطيع متدبر القرآن أن يلاحظ هذه القضية وهي «عمارة النفوس باللَّه» في كل آية من كتاب اللَّه، فما من آية من آيات القرآن إلَّا وفي جوفها معارج تسري بالقلوب إلى مُقَلِّب القلوب.

وقد انعكست هذه الهدايات القرآنية على تعاليم سيد ولد آدم ﷺ فنبهت أحاديث النبي ﷺ على انكباب القلوب على اللَّه جل وعلا، وأظن من أكثرها لفتًا للانتباه الحديث الشهير الذي رواه البخاري ومسلم عن السبعة اللذين يفوزون بظل اللَّه يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم «**ورجل قلبه مُعَلَّق في المساجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه**»[1].

شاهد كيف يربي النبي ﷺ في نفوس أصحابه التعلق بالمسجد، وقارنه ببعض المنتسبين للدعوة الذي صاروا يُعَلِّقون الناس بما هو خارج المسجد!

---

(١)أخرجه: البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

قارن الخطاب النبوي بمنتسبين للدعوة صاروا من الزاهدين في سكينة المساجد، المولعين بصخب الدنيا.

وهذا المعنى الذي تواردت عليه معاني القرآن -كما رأينا نماذجه سابقًا- هو خاصة التوحيد الذي دارت عليه عبارات متألهي السلف وربانييهم، وما أحسن قول أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والمقصود هنا أن الخليلَيْنِ - محمد وإبراهيم - هما أكمل خاصة الخاصة توحيدًا..، وكمال توحيدهما بتحقيق إفراد الألوهية، وهو أن لا يبقى في القلب شيء لغير اللَّه أصلًا**»[١].

يا أللَّه. ما أجمل هذا المعنى!

اللَّهم لا تجعل في قلبي وقلوب إخواني شيئًا لغيرك أصلًا.

لقد جُبِلت النفوس البشرية على التعلق بالدنيا، والغفلة عن الآخرة، لذلك جاءت آيات القرآن فجعلت «الأصل» في الخطاب الدعوي ربط الناس بالآخرة، و«التَّبَع» هو التأكيد على أهمية إعداد القوة، هذه نزعة ظاهرة في القرآن والسنة ووصايا السلف.

ولكن للأسف جاءتنا خطابات دعوية مادية أرهقتها مواجهة التغريب فانكسرت وتَشرَّبَت ثقافة الخصم ذاته، وصارت منهمكة في تذكير الناس بالدنيا، وجعلت التبع هو الآخرة.

خطابات لم تعد تستحيي أن تقول: مشكلة المسلمين في نقص

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٥٥).

دنياهم لا نقص دينهم!

ولكن لا يزال - ولله الحمد - من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلًا.

إن الدعاة إلى اللَّه الذين يحاولون دومًا توظيف الأحداث للتذكير باللَّه، هؤلاء أعلم الناس بحقائق كتاب اللَّه، وإن أولئك المفتونين الذين يسخرون من ربط الأحداث باللَّه، ويسمون ذلك (المبالغة في تديين الحياة العامة) تشويهًا لهذا الدور النبيل؛ هؤلاء هم أجهل الناس بدين اللَّه الذي وضحه في كتابه ببيان هو في غاية البيان.

وإذا تشبع قلب مُتَدبِّر القرآن بهذه الحقيقة الكبرى الناظمة للآلئ القرآن أثمرت له في نفسه عجائب الإيمان.. وأصبح لا يُساكِن قلبه غير اللَّه جل جلاله.. وبرأ قلبه من الحول والقوة إلَّا باللَّه سبحانه.. وصار يُنزِل حاجاته باللَّه.. وأصبح يَشعُر برياح القوة والإمداد الإلهي كما نقل الإمام ابن تيمية: «**ولهذا قال بعض السلف: مَن سَرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على اللَّه**»[١].

فلا يلتفت القلب للأسباب في طلب الرزق، أو البحث عن مسكَن، أو البحث عن وظيفة، أو طلب العلم، أو طلب الإيمان، أو طلب الصحة والعافية، أو طلب الإفراج من اعتقال، أو طلب

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٣).

نجاح ثورة.. بل يصعد القلب إلى اللَّه، ويجتهد في عمل القلب، ويقتصد في الأسباب بالقدر الشرعي.

وهل يَشُك مَن قارن بين مطالب القرآن، والكتب الفكرية المعاصرة التي تتحدث عن النهضة والتقدم؛ أننا لا زلنا بعيدين عن النهضة والحضارة بحجم بُعد هذه الكتب الفكرية النهضوية عن أهداف وغايات ومطالب القرآن؟

باللَّه عليك! هل رأيت كتابًا فكريًّا نهضويًّا ينطلق في نظريته للنهضة من «آيات التمكين والاستخلاف»؟

هذا المعنى المنبث في تفاصيل آيات القرآن، وهو «عمارة النفوس باللَّه»، هو الحبل الناظم حقًّا في كتاب اللَّه، وقد سمى اللَّه كتابه حبلًا كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ونبه النبي ﷺ على أن هذا الحبل هو القرآن كما قال النبي ﷺ: «كتاب اللَّه، هو حبل اللَّه»(١).

وعمارة النفوس باللَّه مقصد شرعي عظيم، قال الإمام ابن تيمية: «**فإن القلب بيت الإيمان باللَّه تعالى ومعرفته ومحبته**»(٢).

وقال الإمام ابن القيم في «النونية»(٣):

---

(١) أخرجه: مسلم(٢٤٠٨).

(٢) «مجموع الفتاوى»(١٨/ ١٢٢).

(٣) «النونية» بتحقيق العمير: (٣٦٦)، وفي طبعة المجمع (رقم: ٥١٧٩): « حُبًّا وإجلالًا مَعَ الإحِسانِ ».

فَالقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلّ جَلَالُهُ حُبًّا وإخلاصًا مَعَ الإحِسانِ

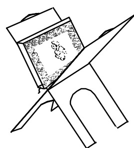
وليس المقصود طبعًا حلول اللَّه - تعالى اللَّه عن ذلك - في قلوب عباده على طريقة «التصوف الفلسفي» الزائغ، بل المقصود عمارة القلوب بالأعمال التي يحبها اللَّه سبحانه، وخلوصه من الالتفات والانقياد لغير اللَّه، على طريقة «التأله السلفي» المهتدي.

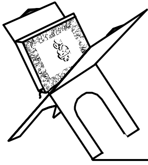
على أية حال.. لقد بيَّن اللَّه لنا مراده في القرآن غاية البيان، وأوضح لنا مطالبه الكبرى في كتابه بصنوف البينات، والعُمْر يركض على شفير القبر، فما أقرب الساعة التي سيسألنا اللَّه جميعًا عن تحقيق مراده، وسيكون السؤال حينها على أساس «القرآن» يقول اللَّه: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ٦٦﴾ [المؤمنون: ٦٦]

ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

ويقول أيضًا: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١]

فتأمل كيف سَتُنَظَّم الحياة المستقبلية على أساس القرآن.. ولينظر كلٌّ منا ما هو أساس حياته؟!





خاتمة

بعد هذه الجولات السريعة في عظمة كتاب اللَّه، وأسرار التدبر المهيبة؛ يتساءل كثير من الناس عن طريقة التَّدبر؟ وهل هناك وصايا مختصرة حول الموضوع؟

الحقيقة أنني رأيتُ كثيرًا من المتخصصين في التفسير كتبوا رسائل رائعة في تدبر القرآن وتلاوته ووسائله، مثل:

«قواعد التدبر الأمثل» للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«تحزيب القرآن» للشيخ د. عبد العزيز الحربي.

«تعليم تدبر القرآن الكريم» للدكتور هاشم الأهدل.

«فن التدبر» للشيخ د. عصام العويد.

و«المراحل الثمان لطالب فهم القرآن» لنفس المؤلف.. وغيرها من الكتب الطيبة في هذا المجال ولم أقصد الاستيعاب، بل مجرد ذكر نماذج.

ولكن دعنا نتذاكر عددًا من المعالم العامة في هذا الموضوع، فوجهة نظري أنه:

أولًا: وقبل كل شيء؛ يجب على الإنسان أن يتضرع إلى اللَّه

ويدعوه ويلح عليه أن يجعله من أهل القرآن، وأن يفتح عليه في فهم كتابه، والعمل به، وأن يجعله ممن قال عنهم: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، فإن الإنسان لا يفتح عليه في العبودية بمجرد الجهود الشخصية والتخطيط للإنجاز، وإنما فتوحات العبودية من بركات اللجأ إلى اللَّه، وكل أبواب الخير من العلم والديانة إنما هي من باب «الاستعانة»، ولذلك أعقب اللَّه العبادة في سورة الفاتحة التي هي أعظم سورة في القرآن، والتي أمرنا اللَّه أن نكررها عشرات المرات يوميًّا -وهذا يعني أن مضامينها موضوعة بعناية وليست اتفاقًا-، في هذه السورة العظيمة أعقب اللَّه العبادة بالاستعانة، فالاستعانة بوابة العبادة، كما سبقت الإشارة إليه.

وثانيًا: يحتاج المسلم إلى وضع حزب يومي للتدبر، وهو ما يسمى بـ «تحزيب القرآن»، والأصل فيه أمر النبي ﷺ كما في البخاري أنه قال لعبد اللَّه بن عمرو: «**اقرأ القرآن في شهر**» قلت: إني أجد قوة حتى قال: «**فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك**»[1].

فجعل النبي ﷺ النطاق الزمني لتحزيب القرآن بين (شهر-أسبوع) فلا يكون أكثر من شهر، ولا أقل من أسبوع، وكان الصحابة لهم أحزاب وأوراد قرآنية يومية، وكان جمهور الصحابة يُحَزِّب القرآن في سبعة أيام.

اليوم الأول: ثلاث سور؛ وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء،

---

(١) أخرجه: البخاري (٥٠٥٤).

وفي اليوم الثاني: السور الخمس التي تليها وهكذا، كما في «السنن» أن أوس بن حذيفة قال: «**سألتُ أصحابَ رسول اللَّه** ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده»(١).

وتلاحظ في تحزيب الصحابة للقرآن أنهم يستعملون السور، وليس الأجزاء أو الصفحات، ولذلك يقول الإمام ابن تيمية: «**فالصحابة إنما كانوا يحزبونه سورًا تامة، لا يحزبون السورة الواحدة**»(٢).

ومن الرائع أن لا يُغلب الإنسان على وِرْدِه من التَّدبر مهما كانت الظروف، والورد اليومي من القرآن كما سمعتُ أحد الصالحين يقول: في اليوم الأول كالجبل، وفي الثاني كنصف الجبل، وفي الثالث كَـ (لَا جبل)، وفي اليوم الرابع مثل الغذاء الذي تتألم لفقده.

وثالثًا: أن يكون الأصل هو التدبر الشخصي، والتفسير مُعِين، لا العكس كما يفعل البعض، وخصوصًا لمن لديهم خلفية شرعية عامة تؤهلهم لفهم جماهير الآيات، والقرآن كما قسّمه ابن عباس أربع مراتب: «التفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير تعرفه العلماء،

(١) أخرجه: أبو داود (١٣٩٥).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٤٠٨).

وتفسير لا يعلمه إلا اللَّه»[1].

فأنتَ إذا استحضرتَ تقسيم ابن عباس العبقري عرفتَ أنه ليس كل القرآن يحتاج لتفسير.

فيقرأ الإنسان في المصاحف المهمَّشة بالتفاسير، ومنها: «التفسير الميسر» الصادر عن مجمع الملك فهد، أو« تفسير الجلالين»، أو «تفسير ابن سعدي»، أو غيرها، فإذا أشكلت اللفظة أو المعنى الإجمالي راجع الهامش، لكنه يحاول هو أن يستكشف الدلالات العظيمة في هذا القرآن العظيم، فإذا لم يكن متأكدًا من سلامة تدبره راجع كتب التفسير الموسعة.

وهذا الإمام العلامة-أضخم مرجعية فقهية سنية معاصرة- ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ حين سُئِل عن طريقة طلب العلم وأولى العلوم بالعناية والاهتمام قال:

«نقول: ابدأ بالتفسير قبل كل شيء، لكن هذا لا يعني ألا تقرأ غيره، لكن ركِّز أولًا على علم التفسير..، فعليك بالتفسير، احرص عليه ما استطعتَ، وطريقة ذلك: أن تُفَكِّر أنتَ أولًا في معنى الآية، قبل أن تراجع الكتب، فإذا تقرر عندك شيء فارجع إلى الكتب، وذلك لأجل أن تمرن نفسك على معرفة معاني كتاب اللَّه بنفسك، ثم إن الإنسان قد يفتح اللَّه عليه من المعاني ما لا يجده في كتب التفسير، خصوصًا إذا ترعرع في العلم وبلغ مرتبة

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠).

فيه فإنه قد يُفتح له من خزائن هذا القرآن الكريم ما لم يجده في غيره»(١)

فانظر إلى هذا الفقيه الإمام كيف يُوصي طلابَه بأن يقرؤوا الآيات ويستنبطوا منها ثم يراجعوا كتب التفسير، بل وكان يطبق ذلك عمليًّا فيعطيهم آيات ويطلب منهم أن يسهروا في الاستنباط منها ويأتوا بها غدًا(٢).

ثم بعد ذلك يقرأ الإنسان في مطولات التفسير قراءة مستقلة، كتفسير الطبري، وابن كثير، وابن عطية، ونحوها.

ورابعًا: من أجمل الأمور أن يضع الإنسان لأهل بيته برنامجًا في التفسير، فيقرأون ويتبارون في الاستنباط ثم يراجعون التفسيرات المختصرة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فالنبي ﷺ كان يتلو على نسائه القرآن، وهذا له أثر لا يتصوره

---

(١) «لقاء الباب المفتوح» رقم (٨٦).

(٢) والمقصود: أن يُمَرّن الإنسان نفسه على تدبر القرآن، لا أن يستقل بفهم لم يذهب إليه أحد قبله، ولذلك يقول الشيخ العثيمين: « فإذا تقرر عندك شيء فارجع إلى الكتب» وذلك لتختبر فهمك وتعرضه على فهم العلماء الراسخين، فإذا وجدتَ خيرًا فاحمد اللّه أن يسرك للفهم السليم، وإن وجدت غير ذلك تكون في شغف لتصحيح فهمك الذي تبادر إليك عند القراءة.
أقول ذلك لأننا ابتلينا هذه الأيام ببعض مَن لا يُحسِن قراءة الفاتحة صحيحة، وهو مع ذلك يُقدّم فهمه السقيم، ويظن أن ما تبادر إلى ذهنه العليل هو مراد الله وفهم الراسخين له – نعوذ باللّه من ذلك–.

الكثيرون في تحبيب الأهل في القرآن والإقبال على الاستنباط منه، بل وستجد أهلك يصبحون دائمي التساؤل حول بعض استنباطاتهم للقرآن وهدايات آياته، وأهم من ذلك كله ستجد في أهلك قوة على الطاعة ونظرة مختلفة للدنيا وزخرفها، فهذا القرآن عَجيبٌ عجيب في تصحيح المفاهيم وتزكية النظرات والتصورات.

وخامسًا: لا أعلم درسًا شرعيًّا في كل علوم الإسلام أسسه النبي ﷺ وأصَّله نظريًّا بنفسه إلا تدارُس القرآن، فكل دروس الشريعة نوع من الاجتهاد في تنظيم العلم إلَّا تدارس القرآن فهو منصوص كما قال النبي ﷺ: **«مَا اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللَّه يَتْلون كِتَابَ اللَّهِ، ويَتَدارسُونَه بَينَهُم، إلَّا نَزَلَتْ عَلَيهِم السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمة، وحفَّتْهُم المَلائِكَةُ، وذَكَرَهُم اللَّه فيمَن عِنَده»**[١].

هذا هو أعظم الدروس الشرعية التي يحبها اللَّه، ولذلك ما أجمل أن يضع الإخوان لأنفسهم برنامجًا أسبوعيًّا يُحضِّر كل منهم من تفسير معين ثم يتدارسون معانيه، هذا البرنامج يُزوِّد المسلم بالطاقة الإيمانية والمنهجية التي تعينه على صعوبات الحياة.

والطرق متنوعة، والموضوع مُتَشَعِّب، والكتب المتخصصة كثيرة، والمقصِّر يخجل من مناصحة الآخرين، ولكنه التذاكر والتباحث في موضوع أخشى أننا لم نُقْدُره قدره بعد.

(١) أخرجه: مسلم(٢٦٩٩).

ولقد تأملت سيرة الصحابة في «سير أعلام النبلاء»، وبعض «طبقات ابن سعد»، وبعض «حلية أبي نعيم»؛ فهالَني -واللَّه- ما رأيتُ؛ من إقبالهم وتكثيف جهودهم في القرآن، وعلمتُ حينها ما الذي مَنح أولئك تلك المَزية، بل انظر في أخبار أبي العباس ابن تيمية الذي كتب في التفسير رسائل كثيرة، كـ«تفسير آيات أشكلت»، و«تفسير سورة الإخلاص»، وجمَعَ مطوَّلات في تفسير السلف نسقًا على الآيات (أكثرها مفقود) وجلس سَنة يُفَسِّر سورة نوح، ومع ذلك حين اعتقل المرة الأخيرة في قلعة دمشق، وسُحِبَت منه الكتب والأقلام أقبل على القرآن وقال: «**قد فَتَحَ اللَّه علي في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن**»(١).

هذا أبو العباس يندم على تضييع أكثر أوقاته في غير معاني القرآن، برغم أنه من أئمة التفسير أصلًا!.

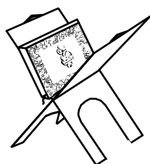
فماذا نقول نحن المقصرين مع كتاب اللَّه؟!

اللَّهم اجعلنا مِن أهل القرآن، اللَّهم اجعل القرآن أنيسنا في ليلنا ونهارنا، اللَّهم شَفِّع سورة «تبارك» فينا في قبورنا، اللَّهم اجعل «البقرة» و«آل عمران» غَيَايتَينِ تُحاجَّانِ لنا يوم القيامة، اللَّهم أحبنا بحبنا لسورة «قل هو اللَّه أحد»، اللَّهم آمين، اللَّهم آمين.

وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

---

(١) «العقود الدرية» (ص: ٤٤).



فهرس الموضوعات

